

محمود محمد سليمان

الخيال في مذهب مدرسة الديوان

بقلم محمود محمد سليمان

استطاعت مدرسة الديوان(١) وهي كبرى مدارس التجديد في الشعر العربي المعاصر ـ أن تضيف الى آثارها المبتكرة في الشعر فكرا جديدا تقدميا في النقد الادبي، وما كتبه رواد هذه المدرسة في النقد الادبي كان مثالا احتذوه في شعرهم، وبذلك قدموا للنقد الادبي القاعدة والمثال، فشعرهم الجديد وزان نقدهم الحر الجديد، لا جرم كانت مدرسة الديوان ذات توجيه بعيد الاثر في الشعر الحديث وقد استمد هذا التوجيه قوته من مصدرين متفاعلين: القاعدة الواضحة، والتطبيق على غرار القاعدة. وكما كان في شعرهم الجديد عناصر القوة والحيوية، كان نقدهم خطوة بارعة الى تشكيل النقد وصبغه بلون معجب أنيق، فهو نقد الذوق المصفى والاصالة والطبع الصريح. ولا عجب فالناقد الحق هو الاديب المطبوع وقديما قال بعض الشعراء: لا يعرف جوهر الكلام الا من دفع الى مضايق الشعر ومزالقه.

وكان طبيعيا ان يشفع شعراء التجديد مذهبهم الشعري بحركة نقدية توضح خطوط هذا المذهب وترفع اعلامه، ذلك أن شعراء البعث في العصر الحديث وهم يمثلون المدرسة التقليدية التي تزعمها البارودي وارسى قواعدها تلاميذه كشوقي وحافظ واسماعيل صبري وغيرهم ـ كان لهم صدى في اذهان الجمهور واسماعهم، لا يرى الناس عنهم منصرفا، وجمهور القارئين بحكم التقليد ايضا قبلوا من شعراء البعث ان يرددوا على اسماعهم شعرا لا يكاد يفترق عن الشعر الموروث في نسج او خيال او غرض، فمن ضرورات الايمان والاقتناع بالمذهب الجديد من الشعر ان يسانده مذهب نقدي يكون علما على طريق التجديد في الشعر.

والحق أن النقد الذي عرف لشعراء التجديد في مصر كان معيارا صادقا للشعر الذي لا يضل عن طريق الفن المؤثر الخالب. فعبد الرحمن شكري رائد التجديد باعتراف زميليه العقاد والمازني احتل من هذا النقد مكان الصدارة بما كتب عن مذاهب الشعر ونقده في مقدمات دواوينه، وفي كتابه الثمرات ومقالاته النثرية في النقد، واشترك العقاد والمازني في اصدار الديوان ١٩٢١، وهذا الكتاب يمثل الاتجاه النقدي العام لشعراء التجديد في مصر وجهودهما الفردية يمثلها كتاب فصول من النقد للعقاد، وتعليقاته على شعراء المدرسة التقليدية وللمازني في هذا المجال كتاب شعر حافظ، وكتاب الشعر وغاياته ووسائله الذي أصدره عام ١٩١٥ ومقالاته النقدية في حصاد الهشيم وقد صدر في عام ١٩٢٣.

وهذه الدراسات على تشعبها ترفد مدرسة واحدة في النقد الحديث، وعرفت هذه المدرسة بمذهبها الجديد في الشعر العربي المعاصر، واذا كان من الصعب تحديد نصيب كل من رواد هذه المدرسة في التجديد فليس من همنا في هذا البحث استقصاء عناصر التجديد في نقدهم الذي أرسوا به قواعد هذه المدرسة وانما يهمنا هنا ان نعرض لنقطة واحدة من نقاط كثيرة دارت حولها ابحاثهم ومعاركهم النقدية، تلك هي الخيال الادبي ومن ابرز اعمالهم في النقد الادبي توضيح مفهوم الخيال في الشعر.

وليس من العسير ان نحدد جهود النقاد والبلاغيين القدماء في تناولهم مفهوم الخيال بالشرح والتفسير ولكن الامر الذي لا شك فيه ان جماعة الديوان قد كشفوا عن مفهوم الخيال الادبي وتناولوه في نقدهم بالمعية شفافة وبصورة ذوقية واضحة زينت الانحراف الذي اصيب به النقد القديم.

يقول عبد الرحمن شكري في مقدمة ديوانه الخامس تعليقا على البيت الذي اشاد به البلاغيون القدماء:

فامطرت لؤلؤا من نرجس وسقت   وردا وعضت على العناب بالبرد

يقول: « نسب بعض الناس هذا البيت ظلما الى يزيد بن معاوية، وذوق الامويين بريء من امثال هذا القول، ولا اريد ان أجمع على يزيد جرمين: قتل الحسين وقول هذا الشعر الذي لا بأس به اذا اريد للفكاهة والعبث لا للغزل الذي يشرح عواطف النفس ويشعرك اياها ». فالخيال المقبول المؤثر رمز الشعور والاحساس، وصدى العاطفة الصادقة، والخيال المصنوع الذي يسويه الذهن البارد ليس هو الخيال الفني الذي يقدره الفن الجميل، ومعنى هذا ان اول شرائط الخيال الصدق في تصوير النفس، ويتم عنصر الصدق في الخيال ان يفسر الحقيقة تفسيرا

مقبولا ، فالاحالة التي تلجأ الى الاغراب لا تفسر الحقيقة ولا تشعر السامع بها ولا يقبل من الشاعر ان يتجنى على الفكرة المعقولة بضروب الكذب من الخيال زاعما ان اعذب الشعر اكذبه يقول شكري : « شاع عند الناس ان الشعر نوع من الكذب وليس ادل على جهلهم وظيفة الشعر من قرنهم الشعر الى الكذب ، فليس الشعر كذبا بل هو منظار الحقائق ، ومفسر لها ، وليست حلاوة الشعر في قلب الحقائق بل في اقامة الحقائق المقلوبة ، ووضع كل واحدة منها في مكانها » (٢) .

والسبيل المأمون الى تنكب طريق الخيال الكاذب الا يصطنع في التعبير اصطناعيا ، بحسبان ان الخيال لذات الخيال هو معيار البلاغة فالتشبيه لا يجتلب لذاته في التعبير فقيمته بما يثيره من الذكرى او الامل او العواطف المختلفة ، وهو لن يكون كذلك الا اذا كان رمزا لشعور معين ، وقد يخطىء الشاعر اذا وصف شيئا بعيدا عن تجربته النفسية لمجرد انه شيء وقع تحت بصره ، وكأنه يستحق لمجرد الرؤية ان يدخل في وصف الشاعر ، ويدعو هذا الوصف الميكانيكي كما يسميه شكري ان يلجأ الشاعر الى التشبيه ليعينه على الوصف ، ولا يأمن الشاعر العثار الا اذا وصف شيئا يحس صلته بنفسه ، واتخاذه التشبيه اسلوبا للتعبير في هذه الحالة من طرائق الخيال الطبيعية ، والتشبيه لا يكون نموذجا من نماذج الخيال السليم الا اذا قدرت وظيفته الرمزية تمام التقدير ، ومعنى ذلك ان ننقله من مجال الحواس الخارجية الى داخل النفس البشرية فالهدف من التشبيه نقل الاثر النفسي من وجدان الشاعر الى وجدان القارىء (٣) .

فقول ابي تمام مثلا في وصف الزهرة وقد طلها الندى :

من كل زاهـــرة ترقرق بالندى   فكـانهـا عين اليـك تحـدر

هذا القول غير سديد بهذا المقياس الذي اسلفنا ، فقد روعي في تشبيه ابي تمام الشكل وتلاؤم الطرفين من الناحية الحسية ، ولكنك تجهد النفس لتصيب الشعور الذي يترجم عنه هذا التشبيه فيعسر عليك ، وسبب ذلك واضح ، فالتلاؤم بين طرفي التشبيه لا يتعدى الناحية الحسية : حبات الندى المتألقة على الازهار كالدموع المترقرقة في العين توشك ان تتساقط ، بل هي قد تساقطت فعلا من منطق الشاعر ، لانها دموع تتحدر ، واذا تجاوزنا عن اغفال الدقة في تلاؤم التشبيه من الناحية الحسية فمن البين ان التلاؤم الشعوري بين طرفي التشبيه غير موجود ، فالندى المتألق على الازهار يوحي بالمشاعر الجميلة ، ولكن الدموع المتحدرة في العيون توحي بشيء آخر لا يتناسب مع المشاعر الجميلة . يقول العقاد في كتاب الديوان : « الشاعر من يشعر بجوهر الاشياء لا من يعددها ويحصي اشكالها ، وليست مزية الشاعر ان يقول لك عن الشيء ماذا يشبه ، وانما مزيته ان يقول : ما هو ويكشف عن لبابه ، وصلة الحياة به ، وليس هم الناس من القصيد ان يتسابقوا في أشواط السمع والبصر ، وانما ان يتعاطفوا ، ويودع احسنهم واطبعهم في نفس اخوانه زبدة ما رآه وما سمعه ، وخلاصة ما استطابه وما كرهه ، واذا كان وكدك من التشبيه ان تذكر شيئا أحمر ثم تذكر شيئين او ثلاثة مثله في الاحمرار فما زدت على ان ذكرت اربعة اشياء او خمسة بدل شيء واحد . . . وقد ابتدع التشبيه لنقل الشعور بهذه الاشكال والالوان من نفس الى نفس ، وبقوة الشعور وتيقظه وعمقه واتساع مداه ونفاذه الى صميم الاشياء يمتاز الشاعر على سواه » .

وهذه الدراسة العميقة للتشبيه باعتباره صورة خيالية ادق من نظرة القدماء الى التشبيه فالنقد القديم اقام التشبيه على اعتبار نقل الالفاظ من مجال الى آخر بجامع الشبه بين المنقول منه والمنقول اليه ، ولا تكفي صلة التشابه بين طرفي التشبيه ، اذ لا بد ان يكون الرباط الجامع بين طرفي التشبيه التشابه في الوقع النفسي بغض النظر عن التماثل المحسوس ، فهذا ضمين ان يصحح اعتبار التشبيه وان يكون صورة لتموجات العاطفة ، كما انه يدعو الشعراء الى نبذ التقليد ، وترك الصور المتحجرة من ميراث الادب ، ويصفي التعبير الشعري من القوالب التي حسبت زورا من التقاليد الادبية ، فسهل على بعض الشعراء والادباء ان يوشوا بها احاديثهم وان كانت لا ترمز الى شيء في افكارهم ووجداناتهم ، وقيمة هذه النظرة الى التشبيه بالاضافة الى ما سبق ــ انها تنفي ادعياء الادب عن مجاله فلا يدخل الى ميدانه الا كل قادر على البيان الحر المبتكر ، والتعبير الذي يشف عن احساس صادق في نفس الاديب ، وصحيح ان من حق الاديب ان يقتبس صورة رآها تكشف عن اصداء في نفسه ، ولكن ليس من حقه ان يكون في كل تعبيره نموذجا ممسوخا من تصوير القدماء وتعبيرهم ! ولا يخفى على الناقد صدق المقتبس اذا لم يجد وسيلة لتصوير صدقه الا الاقتباس ولا يكون الشاعر المسجل دائما لتعبير غيره وتصويره صادقا وان اوهمنا بكل وسيلة ان نؤمن بصدقه. ومن هنا نقول ان نظرة مدرسة الديوان الى التشبيه عظيمة الجدوى بالنسبة للادب والنقد على السواء ، فهي تشرع للاديب سنن الصدق الذي لا يحيد عنه وهي تؤمن طريق

---

(١) يقصد بمدرسة الديوان شعراء التجديد في مصر عبد الرحمن شكري والعقاد والمازني وسبب التسمية ان هؤلاء الشعراء يمثلون مدرسة واحدة وان كان الديوان وهو كتاب في النقد لم يشترك فيه شكري الا انه الرائد الاكبر لهذه المدرسة باعتراف زميليه ومن الغريب ان شكري هوجم في كتاب الديوان .

(٢) مقدمة ديوانه الخامس .

(٣) مندور . المجلة المصرية أغسطس ١٩٥٩ .

(٤) الشعر ومزاياه للعقاد من مقدمة ديوان شكري الثاني ١٩١٣ .

(٥) الدكتور مندور . المجلة المصرية اغسطس ١٩٥٩

(٦) مقدمة ديوان المازني ص ١١ .

(٧) مقدمة ديوانه الخامس ص ٢٣٦ .

الناقد الذي يخدعه زيف الصور المبرقشة وليس تحتها غناء وهي بعد – اعود على الادب بالثراء ، لانها دعوة الى تجديد التعبير واغناء الادب بالصور المبتكرة التي لا يلحقها جمود ، ولا تفتر لها حرارة ، ان الذين يستعيرون من تعبير غيرهم لا يبلغون من صدقهم مبلغ الاديب الذي يبتكر تعبيره . ارايت الى الذين يستعيرون اثواب غيرهم ليظهروا بها بالمظهر اللائق ؟ انهم لا يشعرون نحوها بتعاطف او هوى ، وهم غير حراص عليها ، لانها اثواب لا تخصهم ولا تهمهم ، وكذلك يكون التعبير البكر قطعة من نفس صاحبه، وصدى صادقا لهزة انفعالية تقترن ابدا بذكرى لا تتبدد من الذهن عاب الاستاذ العقاد على شوقي في الديوان انه يعتني بالتشبيه على طريقة القدماء ، واذا كان شوقي قد اخلص لوجدانه في بعض شعره فعيب التقليد لاحقه ، لاننا نؤكد ان اقتباس الصور لا يدل دلالة واضحة على هزة الوجدان ، وان سلمنا بصدق عاطفة الشاعر فقدرة المقلدين البيانية موضع ريبة وتوقف .

وفهم التشبيه وتحديد وظيفته على طريقة مدرسة الديوان يجعلهم رواد الرمزية في الادب الحديث اذ ان التشبيه رمز عن اثر التشابه في النفس وليس تعبيرا عن التماثل الحسي بين طرفين « فليس الجميل قمرا ، ولا الزئير ارعدا ، ولا الكريم غماما ... ولكن الغبطة بالصورة الحسناء (٤) كالغبطة بالليلة القمراء ، والرهبة من زمجرة الاسود في غابها كالرهبة من جلجلة الرعود في سحابها » والنظرة القديمة الى التشبيه اذ تهتم بالشكل والحاسة تغفل اعتبار الآثار الادبية القوية بسبب النظرة الضيقة الى التشبيه ، وآية ذلك ان النقاد القدماء شغفوا ايما شغف ببيت بشار :

كأن مثار النقع فوق رؤوسنا وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

وليس في هذا البيت ما يعجب الا ان نجاري القدماء على طريقتهم فتقول : احسن بشار واجاد لانه جمع بين طرفي التشبيه في دقة وبراعة ، ولو خطونا خطوة واحدة باحثين عن النفس المتسترة وراء الصورة الدقيقة لوجدنا الخلاء والخواء ! واذا ابدع بشار التشبيه على طريقة الرمز النفسي لا يلتفت اليه النقد القديم ، ولهم العذر الا يلتفتوا اليه لان طريقتهم الوقوف عند حدود الحس ذلك حيث يقول :

حوراء ان نظرت اليك سقتك بالعينين خمرا
وكأن رجع حديثها قطع الرياض تسن زهرا

فلمرای العيون الساحرة اثر في نشوة النفس كأثر الخمر يشربها النديم فتسري في اوصاله خدرا ونشوة وحين تردد الحسناء حديثها العذب في الاسماع يهز المشاعر كما نقلب ابصارنا في الروضة المونقة بالزهر فيرجع الينا البصر بمتعة القلب ونشوة الاحساس !

ان التناسب هنا في النفس لا في الحس ، فالاثر النفسي هو نقطة التشابه ولذلك ساغ في منطق بشار تبادل الحواس فالمسموع كالمرئي والمرئي بالعين كالمذوق بالفم والحواس كلها تلتقي عند نقطة واحدة الاثر النفسي الواحد عن طريق الاحساسات المختلفة واذا فمحور التشبيه في عرف مدرسة الديوان الاثر النفسي الذي تلتقي عنده اطراف التشبيه ممثلة في الاحساسات المختلفة وهذا فهم عميق صادق لوظيفة التشبيه لانه يمثل الصدق الفني من ناحية ، ويجدد اساليب التشبيه من ناحية اخرى ، ولا يلتوي علينا بعد ان نقول: ان مذهب الرمز على طريقة رواد التجديد في الشعر او مدرسة الديوان مذهب صحيح ، وانه لمذهب النظرة العميقة الشاملة المتعمقة جوهر الفن ولبابه يقول الدكتور مندور : « ان تفسير جماعة الديوان لوظيفة التشبيه يتفق مع نظرية العلاقات التي عبر عنها بودلير بقوله : « ان العطور والالوان والاصوات تتجاوب » اي يحل بعضها محل بعض في احداث الواقع النفسي الواحد فالشاعر يصف مرئيا بصفة ملموس فيقول عن السحاب الرمادي الابيض انه في مثل نعومة اللؤلؤ ، واللون لا يعبر عنه في اللغة التقليدية بالنعومة ولكن قوة التعبير واضحة من الناحية النفسية ، اذ ينقل الينا احساس الشاعر الحقيقي » (٥) .

ولا شك ان مذهب الرمزية في التشبيه يجدد انماط التعبير ويكسب اللغة تجددا ونموا ، وان كان في بعض هذه التعبيرات غرابة ، فمرجع الغرابة الى عدم التناسب الظاهر ولكننا قد اتفقنا على الاساس الذي ترتكز عليه ، وهو ما وراء التعبير من شعور واحد يجمع الاطراف التي تبدو متنافرة ، وهي جد متلائمة . ومن عبارات طاغور الشاعر الهندي « السكون المشمس » واذا فسرنا عبارة الشاعر كانت طبيعية واصبحت غرابتها مألوفة فالاحساس بالسكون الممتع كالاحساس بالدفء اللذيذ ، وليس بعد الصدق النفسي مطلب لمن اراد الصدق في التعبير .

وقد احترس جماعة الديوان وهم يشرحون فكرة التشبيه الجديدة من التميع النفسي ووراء هذا المذهب الذي يخلب المقلدين فيفسد فيهم الصدق النفسي ، فلم يقبلوا اولا الرمز الحاشد الذي يكثر في التعبير فيذهب بطلاوته ويلفه في جو من الضباب ، لان تداخل التشبيهات مضيعة للوضوح ، وهو من اسس الجمال في التعبير ولذلك عاب عبد الرحمن شكري ايغال شعراء ابوللو في الرمزية ، ونقل لهم ناصحا قولة بندار شاعر الاغريق : ابذروا البذر باليد لا بالزمبيل . والهدف المعنى بالعبارة ان كثرة التشبيهات المتداخلة تميت الوضوح في التعبير تماما كالزرع الذي يتكاثر نموه في مكان واحد فيطغي بعضه على بعض ، فلا يستوي على سوقه ولا يشتد عوده ، ولم يقبلوا ثانيا التقليد ، فاذا انساق الشاعر مخدوعا برواء التعبير فقد ضل طريق هذا المذهب النفسي ، وصار الى مثل الحالة التي يعبر عنها العقاد بقوله : (٦) .

« قد بلغ بهم الولوع بما سميناه الابتداع التقليدي انهم

وصفوا الدمع الاحمر والدمع الاصفر والدمع الازرق والدمع الاخضر ، والدمع البنفسجي وحسبوا ذلك من بدائع الافتنان وانهم جاءوا بطائل كبير » .

ويجود التشبيه اذا كانت الصلة بينه وبين الحقيقة التي يفسرها واضحة جلية ويظهر ذلك من قول الشريف الرضي:

ما للزمان رمى قومي ففرقهم تطاير العقب لما صكه الحجر

فالتشبيه هنا يفسر حقيقة في حياة الشاعر تفسيرا صحيحا ، اذ تفرق قومه فلا التئام لهم كما تطاير الاناء من صدام الحجر ، والصلة بين طرفي التشبيه مثينة لم يخترعها الوهم لان تشبيه الوهم لا يتناول الحقائق بالتفسير والتوضيح ، وليس فيما ينتج الوهم من تشبيه صلة تجمع طرفيه ، فضلا عن الرمز بهذا التشبيه الى لون شعوري معين . وما الصلة التي يمكن ان نلاحظها بين الدجى وبين الاسد في قول ابي العلاء :

واهجم على جنح الدجى ولو انه أسد يصول من الهلال بمخلب

ولا يتأتى لنا ان نقول : ان في هذا التشبيه صلة طبيعيه رابطة بين عناصره ، وليس فيه رمز الى شعور نفسي يوثق الصلة بين طرفيه ، وكل ما فيه صنعة زادت غلوا باعتبار الدجى اسدا صوالا له من الهلال مخلب ، ومثل هذا التعبير ينزل في درجات الفن الى مستوى أقل من التشبيهات التي يجمع اطرافها صلات الحس والشكل ولعل العقاد كان يعني مثل هذا الشعر بقوله في الديوان : « هناك ما هو اقوى من شعر القشور والطلاء وهو شعر الحواس الضالة والمدارك الزائفة ... والشعر الذي لا يرجع الى مصدر اقوى من الحواس شعر القشور والطلاء » .

والمذهب الرمزي الذي ارتضاه جماعة الديوان في التشبيه قد تبدو فيه الصلة بين الطرفين في التشبيه غريبة احيانا وهذا صحيح، ولكن الصلة موجودة ، ومع وجودها فهي متينة وثيقة ، وكل ما في الامر انها تلتبس على اذهان العامة وليس هذا عيبها ، ولا يكون من الاسباب الذي يقدح فيها ويزدريها ، ولو استعدنا المثل الآنف الذي يروى عن طاغور « السكون المشمس » لراينا في تلاؤم التشبيه غرابة، ولكن الغرابة لا تعني انقطاع الصلة كما راينا في بيت ابي العلاء السابق وهذا ما دعا شكري الى ان يقول : قد يكون سبب الخيال الكاذب بعد التأليف بين شيئين لا يصح التأليف بينهما ، وان بعد وجه التأليف وخفاء الصلة ليس بمعيب اذا كان وجه الشبه بين الشيئين صحيحا صادقا ، وكانت الصلة التي بينهما متينة ، فليس ظهور الصلة لكل قارىء دليلا على متانتها ، فقد تكون ظاهرة ضعيفة ، وقد تكون خفية سليمة صادقة ، فليس كل ما يخطر على اذهان العامة من الخيالات صادقا صحيحا ، والعبقري من الشعراء ، قد يفرى باستخراج الصلات المتينة الصادقة بين الاشياء فتقصر اذهان العامة عن ادراكها، وهذا ليس مذهب الناظم الذي يولع بان يوجد صلات سقيمة بين حقائق ليس بينها صلة » (٧) .

الشاعر والجمال

هل عند ناعستيك سر عزائي
يا ربة الاغواء ، والاغراء
لونت غرمناي من وهج الضحى
وسكبت من شفق الحياة رجائي
بيداء نفسي لم تزل ظمآنة
للنور للانسام ، للانداء .
أتروض كفك جامحات رغائبي
والعاصف المجنون من اهوائي
الليل والنجوى واحلام الصبا
وهدير طاغي الرغبة الهوجاء

للكأس لألأة الخدود وفي يدي
من ذوب ثغر الكأس فيض ضياء
والكوخ في كنف السكينة سابح
في كل مواج من اللألاء
والناي مرتعش الصدى متقطع
تعب كانفاس العليل النائي
وسكبته لهبا بثغرك فارشفي
هذي عصارة أنفس الشعراء

وانا الضحية للجمال وكيف لا
يترشف الشفق الخضيب دمائي
يممت هيكله المقدس عابدا
وعبيد آلهة الجمال ورائي
خدعتهم اسماؤه وعبدته
فردا وراء تعدد الاسماء

حمص **حبيب ناصر**

وعبارة شكري السابقة تجمع مناحي التشبيه بين الجودة والضآلة والسقوط ، فالتشبيه الذي تكمل فيه الصلة بين الطرفين ، ولو كانت خافية هو التشبيه الجيد ، ومدار امره على الارتباط النفسي بين الطرفين ، وهو مذهب الرمزية الذي اوضحنا معالمه والتشبيه الضئيل هو الذي يتناسق طرفاه في ظاهر الحس ، وهو اكثر التشبيهات ، وهو التشبيه التقليدي الذي تظهر فيه الصلة لارتباطها بالحاسة لا بالنفس . والتشبيه الساقط الذي يتألف طرفاه من الوهم الكاذب فلا صلة في النفس ولا صلة في الحس .

الفيوم **محمود محمد سليمان**



البطل نور الدين زنكي

●

عدنان مردم بك

رفعت للمجد صرحا غير منهار ... ما شابه عور او شوب اعوار
تكر من دونه الاجيال مطبقة ... من الخشوع باجفان وابصار
ويطرق الليل اجلالا بهامته ... لصارم من سيوف المجد بتار
ما شيد الناس منهار وما رفعت ... يد البطولة باق غير منهار
شتان ما بين اكواخ على جرف ... وبين ابنية ميزت باحجار
كم في البنائين من ضد لملتمس ... حقيقة طويت ما بين آثار
تبني البطولة اكوانا اذا عجزت ... يد الخصاصة ان تجري بمضمار
وتنظم الكون انغاما يرددها ... فم الزمان باجلال واكبار

* * *

أكان في سيف (نور الدين) منتقص ... وسيفه قدر يفري باعمار
يشب عن ثاقب في كل معترك ... كالنجم يسطع في الظلماء للساري
في شفرتيه يقوم الموت منتصبا ... للوثبة البكر كالمستأسد الضاري
ويعصف الهول هدارا بصفحته ... كعاصف تحت جنح الليل هدار
يهوي فتنتهب الاعمار حيث هوى ... نهب المغير لازواد واعشار
يهوى فتصطفق الاكباد من جزع ... كريشة خفقت في جنح اعصار
من دونه تشخص الاحداق زائغة ... بجحفل من جيوش الرعب جرار
وما على المرء من عار اذا شخصت ... احداقه هلعا من هول اقدار

* * *

اعاد للشام (نور الدين) سيرتها ... كأن (مروان) لم تنزح عن الدار
في كل ركن بها للمجد الوية ... سجت تحلق من تيه كاقمار
وللكرامة ما دون الثرى صور ... صاغ النجيع لها تاجا من الغار
اطارها حسب كالنجم مؤتلق ... يشب ما بين كثبان واغوار
اذا سرت للرياح الهوج قافلة ... تذاءبت دونها من فرط اكبار
خط الحسام بارض الشام ملحمة ... سطورها من دم غال وانوار
في كل بيت بها بيت لمكرمة ... يضوع رفرفه من نفح احرار
تباركت سير الامجاد من سير ... غنى بها الدهر مخمورا باسحار

* * *

أليس في كل سفح سيرة نقشت ... عن الشهيد بلفح الدمع والنار
في سفح (حارم) اعلاق تشع سنا ... كالفجر يعصف من اعطاف موار

وللبطولة آيات بها عجب … تطن في مسمع الدنيا بقيثار
دم يمور واجساد مبعثرة … على التراب لا خيار وابرار
اذا يد الليل ارخت دونها طررا … من القتام واذيالا من القار
وغام اثر الربى لليل اجنحة … وغار عن (حارم) نجم باسرار
تلألأت سير الاجداد مشرقة … كساطع من خضم النور زخار
وفاح بالطيب تاريخ يشع شذا … كما تفوح ازاهير بآذار

* * *

اني لاسمع خلف (التل) زمزمة … تطن عاصفة فيه كاعصار
والمح النار سيلا في مخارمه … يمور مصطخبا ما بين اسوار
تزمجر النار من غيظ وموجدة … كمحنق ماج غيظا صدره الواري
ففي الهضاب من النيران عاصفة … وفي السفوح لظى تجري كأنهار
اذا تلاطم موج النار مصطخبا … تلاطمت مهج في غمر اذعار
وارتجت الارض كالمخمور من جرع … تديرها النار في اقداح اقدار
وسير (التل) حتى خال مبصره … ان القيامة باتت قيد اشبار
تشهد القوم مأخوذين من هلع … مما رات عينهم من محنة النار

* * *

وما (دلوك) بما قاست وما شقيت … غير الطريدة في اصفاد جزار
قام الدخيل على اعطائها حججا … كأنه الداء في اصر واوزار
شاد الحصون على الوادي وعززها … خوف الشهيد باخوان وانصار
فكل حصن مشيد دونه همم … تطاول النجم في قصد ومضمار
ما كان في الوهم ان تطوى معاقلهم … طي السراب وان تمحى كأسطار
حتى رمى القوم (نورالدين) عن كثب … بجحفل لجب للموت كرار
تراجع القوم خوف الموت من جزع … وليس في حذر الاقدار من عار
وبات كل مشيد من معاقلهم … في قبضة النار اخبارا لسمار

* * *

اليس في السفح عن اجدادنا سير … تنشها الطير انغاما بأسحار
تردد الريح ما غنته ساجعة … عن غابر دون انهار واشجار
فيرهف الدوح بالاسماع من شجن … لبوح نائحة او نوح مزمار
وللغدير غناء في مساربه … لهمس ساجعة او رجع تذكار
هل النجوم سوى الاحداق ايقظها … من غفوة هاجس يفري باظفار
يهيجها الشوق للماضي ويؤلمها … والوجد مبعث آمال واوطار
فكل ركن اناشيد الملحمة … يقصها الدهر في تيه واكبار
دون العلى غصص يلوى بجامحها … صدر الكريم وتعي كل جبار

* * *

خبرتك جلق (نور الدين) نافحة … من طيب الحمد تزجيها لسمار
غضبت للوطن الغالي تعيث به … شراذم لدخيل او لاشرار
طفلت (جلق) في اللاواء منتصرا … (لعبد شمس) بتار وخطار
اضفت عليك جزيلا من معلقة … للحمد جملها دري واشعاري
ما كان بدعا اذا وفتك ما اخذت … وخلدت ذكرك الغالي بقيثاري
من عادة الشام ان تجزي احبتها … حبا بحب وايثارا بأيثار
الم تكن قبلة الاحرار من قدم … ومعقل المجد في يسر واعسار

دمشق … **عدنان مردم بك**



اميل توفيـق

انـواع التوجيهات الخلقيـة

للمحلل النفسي الامريكي اريك فروم

عرض وتلخيص : اميل توفيق

في هذا التحليل الذي نعرضه ، سنفرق بين التوجيهات الخلقية المبدعة ، والتوجيهات اللامبدعة . على ان المفهوم الخلقي لاي توجيه مـن التوجيهات انمـا يمثل « نوعـا نموذجيا » لا خلقا لفرد معين . واذا كنا نعالج كل توجيه على حدة – منفصلا عن غيره ، فان الخلق الشخصي لاي انسان هو في الواقع خليط مـن بعض او كل هـذه التوجيهات . وجل ما في الامر ان هناك توجيها غالبا تبرز مميزاته الخلقية من بين هذه التوجيهات جميعها في الخلق الشخصي .

وسنعالج انواع التوجيهات الخلقيـة اللامبدعـة (١) فيما يـلي :

التوجيه الاستقبالي (٢)

يشعر الشخص ان (مصدر كل خير له) انما هو آت من خارج نفسه ، ويعتقد ان الطريق الوحيد الذي يؤدي به الى تحقيق غاياته – المادية او العاطفية او المعرفية – هو الطريق الكائن خارج النفس . فمشكلة الحب عنده هي « كيف يحبه الناس » لا « كيف يحب هـو الناس » والاشخاص الذين يدفعهم مثل هذا الشعور ، يميلون الى عدم التمييز او التفرقة في اختيار الذيـن يجـب ان يحبوهم ، فان مجرد ان يلتقوا بأي انسان يحبهم ، سيخلق لهم خبرة طاغية دافعة لان يقعوا في الحب او ما يعتقدونه انه الحب . وانهم لشديدو الحساسيـة لاي نـوع من تصرف هؤلاء المحبين لانهم شديدو التعلق بهم لدرجة انهم ينزعجون اذا ما انسحب هؤلاء المحبين او ابدوا نوعا من عدم الاهتمام او من العلاقات الطبيعية . وفي المجال الفكري نجدهم ينصتون جيـدا ، فهـم يستقبلون الافكار ولا يستطيعون انتاجها . فاذا ما تركوا لانفسهم شعروا بالشلل الفكري – لذلك فهم يلتمسون اولئـك الموجهين لهـم والناصحين – بدلا من ان يكونوا لانفسهـم الحلول حتى المسائل الصغيرة . اما اذا كانوا متدينين ، فانهم يلتمسون كل شيء من الله سبحانه ، بتواكل كلي ، دون ان يستوحوا شيئا من نشاطهم الذاتي . واذا لم يكونوا متدينين ، فان علاقاتهم بالاشخاص او بالهيئات هي علاقات التواكل ايضا فهم يفتشون عمن يعنيهم ويأخذ بأيـديهم ، وان شعـروا بالعجز او الضعف التمسوا عصـا سحرية تفعل لهـم المعجزات .

وهم من اجل ذلك يشعرون بالولاء لكل يد مانحة ، كما يشعرون في نفس الوقت بالخوف من فقدانها . وحيث انهم يحتاجون دائما للكثيرين فهم يظهرون الولاء للكثيرين ، ومن ثم كان من الصعب ان يقولوا (لا) عندما يقعون فـي مأزق تتعارض فيه انواع الولاء . فهم دائما يقولون «نعم» لكل الناس ، ولكل شيء ، ولاجل اي شيء ، او على حد التعبير القائل « يطلعون مع الطالعين وينزلون مع النازلين » ولان الشلل يصيب مقدراتهم الناقدة ، فهم يزدادون اعتمادا على غيرهم .

وهذا النوع من الناس مغرم بالاكل والشرب . بل انهم يميلون للتغلب على قلقهم وهمهم بالمأكل والمشرب . والفم عندهم مميز بالتعبير ، فالشفاه تكون غالبا مفتوحة ، كمـا لو كانت في حالة ترقب ان تطعم . وفي احلامهم يدور الحلم اما على الطعام او الجوع كتعبير للاخفـاق والهم النفسي ، او على التماس الحب ، او نحو ذلك .

ان المظهر العام لهؤلاء الناس هو التفاؤل وشعور الصداقة فهم متفائلون بالحياة وهباتها ولكنهم يقلقون اذا ما هددوا في مصـادر سعادتهم . ويتميزون فـي الغالب بمروءة حقيقية ورغبة في خدمة الاخرين ، ولكن ميلهم هذا يؤدي وظيفة انتظار المحبة والعطف من الاخرين والتماس الامن النفسي .

التوجيه الاستغلالي (٣)

يعتمد الشخص المستغل اساسا علـى الشعور بـأن مصدر الخير له هو خارج النفس ، وانه لا يمكنه الاعتماد على نفسه . فهو يشبه الشخص (المستقبل) غـير ان المستغل لا يتوقع ان يأخذ الاشياء من الاخرين كمنح او هدايا ، ولكنه ينتزعها منهم بالقوة او بالحيلة . وهـذا التوجيه يمتد الى جميع نواحي النشاط . ففي دائرة العواطف يميل المستغلون الى الاشخاص الذين لهم معرفة باناس وجهاء يمكن استغلالهم . ان اهم شرط للوقوع في

الحب هو ان يجدوا اشخاصا لهم صلات هامة يمكن استغلالها .

وفي دائرة الفكر ، هم لا ينتجون افكارا او يبدون آراء بل هم يسرقونها . انهم يصوغون الافكار ، او الاراء ، بصياغة جديدة مخالفة لما كانت عليه من قبل مدعين انهم اصحابها . وهذا هو ديدن الاذكياء منهم . فهذا الاتجاه اساسه الاستغلال اكثر منه عدم الاصالة او وجود نقص فطري لديهم في التفكير بل ربما كانوا قادرين على التفكير المستقل ، ولكن خلقهم الاستغلالي يوجههم نحو السرقة . وهذا الحال ينطبق على المسائل المادية فهم يميلون الى انتزاع الاشياء التي في أيدي الاخرين دون ان يحاولوا جلبها بانفسهم مع انهم قادرون على ذلك . فشعارهم هو « ان احلى الفاكهة هي الفاكهة المسروقة » .

وتنصب رغبتهم بل ارادتهم على ان يقعوا في حب الناس الذين يرون فيهم — صراحة — او ضمنا — موضوعا للاستغلال . وهم يلفظون هؤلاء الناس الذين كفت قدرتهم عن استغلالهم اذ امتصوهم حتى الثمالة . والمثال المتطرف لهؤلاء هو المريض نفسيا بالسرقة الذي لا يستمتع الا بالاشياء التي يمكنه سرقتها مع ان لديه المال لشراء امثالها .

ان ما يميز هؤلاء في الشكل الظاهري هو الفم الذي يعض على النواجذ او الفم القاضم فهي صفة تعد رمزا لخلقهم الاستغلالي . وكثيرا ما يشاهدون وهم يعملون حركات قاضمة ، للاخرين، ان اتجاهم ملون بخليط من العداوة ومن الشعور بتناول الاشياء وحب امتلاكها .

انهم ينظرون الى اي انسان من ناحية استغلاله ، ويجرون حكمهم عليه من حيث مدى الانتفاع به .

وبدلا من الثقة والتفاؤل اللذين يميزان الشخص المستقبل (بكسر الباء) نجد المستغلين يعرفون بصفات التشكك في الناس وسوء الظن بهم وبالتهكم والحسد والغيرة . وحيث انهم لا يشبعون الا بالاشياء التي يمكن اقتناصها من الاخرين ، فهم يرفعون من قيمة ما لدى الناس ، ويحطون من قدر ما لديهم .

توجيه التقتير والادخار (٤)

يتشابه النوعان الاستقبالي والاستغلالي في صفة مشتركة هي تقبل الاشياء من الخارج . اما النوع الثالث وهو النوع المقتر البخيل الذي يكوم المال والحاجيات ، فيختلف عنهما في الاساس . فهذا النوع من الخلق لا يؤمن — الا اضعف الايمان — بهذا العالم الخارجي . واصحاب هذا التوجيه يشعرون بالطمأنينة التي تبنى على الجمع والتقتير والتكويم ، اما الاتفاق او التعرف بالملكية فهو امر يهدد — في نظرهم — الحياة ، وهم لذلك يحيطون انفسهم بحائط وقائي ، او بقلعة محصنة ، يجلبون اليها ، وهم في هذا المركز الحصين ، ما يمكنهم جمعه من رمال وممتلكات ، بل ويحتفظون لانفسهم حتى بالانفعالات والافكار . ان الحب لديهم هو نوع من الحيازة . وهم لا يمنحون الحب ، بل يحاولون ان يستحوذوا على المحبوب . والشخص المقتر غالبا ما يظهر نوعا من الصداقة للناس والوفاء للذكريات .. ان احاسيسهم وعواطفهم تجعل الماضي عهدا ذهبيا ، فهم يحرصون عليه وينغمسون في الذكريات التي تحيي خبراتهم الماضية ومشاعرهم السابقة . انهم قد يعرفون اشياء عديدة ولكنهم مجدبون عقيمون ، من ناحية التفكير الانتاجي . ويمكن الانسان ان يميز الناس من هذا النوع بتعبيرات وجوههم واشاراتهم . فالشفتان مضمومتان ، واشاراتهم تدل على موقفهم الانسحابي . وفي حين نرى النوع الاستقبالي مرحا جذابا، ونرى النوع الاستغلالي عدوانيا وحادا ، نرى المقتر هيكلا عظميا يحمل القليل من اللحم والدم .

ومن اهم مميزات هذا النوع هو تمسكهم بالترتيب والنظام فيما هو تافه وعقيم . فالبخيل مرتب في الاشياء والافكار والاحساسات ، اما ذاكرته فعقيمة وناشفة . انه لا يطمئن ان يرى الاشياء في غير مواضعها بالتمام ، فيندفع بشكل آلي ليعيدها مكانها تماما . فالعالم الخارجي عن ذهنه عالم يهدد موقفه الحصين . وحبه للترتيب بشذوذ يشير الى ميله للسيطرة على العالم الخارجي وذلك بحيازته له ووضعه في مكان امين ، حتى يتجنب خطر الغزو الخارجي المزعوم . ان نظافته الاجبارية تعبير اخر عن شدة تمسكه بعدم التعامل مع العالم الخارجي . فهو يعتبر الاشياء الخارجة عن نطاق عالمه ، خطرة بل قذرة ، وهو لذلك يهمل بل ينكر الاتصال بهذا العالم الخارجي ، وذلك بالنظافة الاجبارية ، التي تشبه الى حد كبير الطقس الديني الخاص بالتطهر اذا لمس العابد شيئا نجسا . وهو ليس فقط يضع الاشياء في مواضعها الصحيحة ، بل وفي اوقاتها كذلك . فالمواظبة الحصارية صفة اخرى من صفات البخيل التي بها يسيطر — لا شعوريا على العالم الخارجي . واذا كان هذا العالم — في خبرته — هو مصدر تهديد لموقفه المحصن ، فان العناد هو رد الفعل المنتظر ، وجلوسه « المرتب » الذي يضم فيه « نفسه » معناه تجنبه للخطر الذي يهدده بالخطف او الدفع . وهؤلاء الناس يشعرون انهم يملكون كمية ثابتة من الطاقة والقوة والسعة العقلية، وان استخدام هذه الكمية سيعرضها للاقلال او للاستهلاك، ومن ثم فهي لا تزيد ولا تنمو لديهم مطلقا . انهم لا يفقهون ان زيادة النشاط يذكيه ، وتشغيل المواهب ينميها ، واستخدام القدرات يغذيها ، بل ان الحركة الحية هي اساس تنمية القوى وتهذيبها المستمر ، في حين ان عقم الحركة يسبب الشلل والجمود ، ان الموت والتحطيم في عرفهم ، اكثر حقيقة من الحياة والنمو . ان الخلق والابداع هو المعجزة التي يسمعون عنها ولا يؤمنون بها . ان اهم

القيم عندهم هي قيم النظام والطمأنينة وشعارهم « لا جديد تحت الشمس » . وفي علاقاتهم بالناس يعتبرون الالفة تهديدا لهم . اما سر امنهم وطمأنينتهم في العلاقات الاجتماعية فهو اما أن يكونوا بعيدين تماما او أن يستحوذوا على المحبوب . والبخيل يميل دائما للشك وسوء الظن ، وحاسته نحو العدل شعارها « ان ما املك انا فهو فقط لي بالتمام ، وما تملكه انت فهو فقط لك بالتمام » .

التوجيه التسويقي (٥)

ان هذا النوع من التوجيه الخلقي هو ناتج هذا العصر . ولكي ندرس طبيعة هذا التوجيه ، يلزمنا ان نفهم الوظيفة الاقتصادية للسوق في المجتمع الحديث، لانها في الحقيقة أساس تكوين هذا النوع من الخلق في الانسان المعاصر . ان المقايضة هي احدى الوسائل الاقتصادية القديمة . والسوق المحلية القديمة تختلف عن السوق التي نتجت في ظل الراسمالية . فالمقايضة في السوق المحلية او الريفية كانت تهيء الفرص لتبادل السلع المختلفة ، بل وللتعارف الشخصي بين المنتجين والمستهلكين ــ وكانت السوق في الاغلب تتألف من مجموعات صغيرة ، وكان طلب الناس من السلع التي يحتاج اليها المستهلكون محدودا بل ومعروفا مقدما لدى المنتجين نظرا لتلك الصلات القائمة بين الفريقين .

اما السوق الجديدة فلم تعد مكانا للتقابل او التعارف، بل اصبحت مكانا لعرض السلع بطريقة « لا شخصية » وما يتحكم في السوق هو قانون العرض والطلب الذي بموجبه يتحدد ثمن بيع السلعة . ومهما يكن من (قيمة الفائدة) لبعض السلع ، فان زيادة عددها عن حاجة المطلوب يعرضها حتما للبوار . ولذلك اصبحت (القيمة السوقية) للسلع توزن بقيمتها التبادلية اكثر مما توزن بقيمة فائدتها. ان الانتظام في تادية وظيفة السوق بهذا الشكل قد نتج عنه مفهوم مماثل من نحو الناس وخاصة من نحو النفس. فالتوجيه الخلقي الذي ينبع من خبرة الانسان لنفسه كسلعة ، وكقيمة تبادلية هو الذي يسميه فروم « التوجيه التسويقي » . وقد نما هذا التوجيه في عصرنا هذا نموا سريعا مقترنا بنمو السوق نفسها، ونعني بذلك ظهور ما نسميه بشخصية السوق . ان رجال الاعمال والمحاسبين والمقاولين والاطباء والمحامين والفنانين ومن اليهم ، مهما اختلفت مراكزهم الاجتماعية والاقتصادية ، انما يشتركون في صفة واحدة ، وهي ان نجاحهم المادي يتوقف على القبول الشخصي لدى اولئك الذين يحتاجون الى خدماتهم . وبعبارة اخرى ان أساس التقدير بالنسبة للشخصية مماثل لاساس التقدير بالنسبة لسلعة السوق . فهناك (عرض للشخصيات) مماثل تماما (لعرض السلع) ــ والقيمة في الحالتين هي القيمة التبادلية ــ صحيح ان القيمة التبادلية يلزمها ان تكون قيمة فائدة ــ ومع ذلك فليس هذا اللزوم شرطا كافيا . ولتوضيح ذلك نقول ان نظامنا الاقتصادي لا يمكن ان تثبت دعائمه لو ان الناس الذين يقومون بالعمل في الميادين المختلفة كانوا ذوي شخصيات مرحة ومقبولة ، ولم يكونوا ذوي خبرات ــ فليس يشفع في الطبيب ان تكون له عيادة ضخمة في ميدان كبير ما لم يكن ماهرا في تخصصه ، وليس يشفع للسكرتيرة في عمل ما ان تستمر في عملها ما لم تتقن الكتابة على الآلة الكاتبة . ومع ذلك فلو اننا قارنا اسباب النجاح التي تعزى الى الخبرة والمهارة فحسب ، بأسباب النجاح التي تعزى الى الشخصية ، لعجبنا من ان الاسباب الثانية هي الغالبة . حقا لا بد للنجاح من مؤهلات الخبرة، وبعض الصفات الانسانية مثل الامانة والرقة والتكامل ، وكذلك لا بد له من عوامل اخرى للشخصية . ولكن التوجيه التسويقي قد جعل عوامل الشخصية تلعب الدور الاهم ، وتتكيف مع مقتضيات السوق . فاصبح النجاح ليس مشروطا بثبوت المبدا . ان النجاح قد اصبح يعتمد في عصرنا هذا على كيف « يبيع » الشخص نفسه في السوق . كيف تستطيع شخصيته ان تشق طريقها ، وكيف « تبدو » في اعين « المشترين » . ان التنافس في الواقع امر عادي وضروري ، ولكن التنافس بأية وسيلة ، وعلى حساب المبدا هو الذي نتج عن هذا التوجيه التسويقي.

ان الشرط الهام للنجاح ــ في المجتمع الذي نعيش فيه ــ هو ان تكون الشخصية مطلوبة في الميدان الذي تعرض نفسها فيه . ومن هنا يصبح تقدير الانسان لشخصه ليس مبنيا على قيمة فائدته لمجتمعه ، او على قيمة الخدمة التي يسعى ان يؤديها ، او على قيمة ما يؤمن من اهداف ، بل على القيمة التبادلية لشخصه في هذا المجتمع . وعلى ذلك يختبر الانسان نفسه كسلعة ، بل كبائع وكسلعة تباع في نفس الوقت . اصبح الانسان لا يعنى حياته او سعادته او اقتران هذه الحياة بالمبادىء ، ولكن يعنيه ان يكون مطلوبا للشراء . ولكي يجتذب (الزبون) يجب ان يكون (جذابا) تماما مثل السلعة . ولكي يكون ثمنه عاليا ، يجب ان ينافس غيره ، وان يبدو أحسن من منافسيه امام الطالبين ، وبمعنى اخر يجب ان تكون شخصيته مطابقة لشخصية السوق التي تعد (الموضة) المطلوبة في المجتمع . ولما كان الانسان يرى نفسه بل يختبرها كبائع وكسلعة في آن واحد ، فان تقديره لنفسه يختلف باختلاف الظروف المتحكمة . فان كان ناجحا، كان مقدرا ، وان لم يكن كذلك ، حط من قدر نفسه .

حقا اذا شعر الانسان ان قيمة نفسه لا يحددها اساسيا ما يملك من مؤهلات الخبرة والانسانية وانما يحددها نجاحه في السوق التنافسية ــ ذات الظروف المتغيرة ، فانه يشعر كذلك ان هذا التقدير يكون في حاجة دائما الى سند من الاخرين والى تأكيدهم . ومن اجل ذلك فان الانسان يجاهد باستمرار من اجل النجاح . ولو اصابه

اي نكوص فمعنى ذلك هو تهديد لقيمة النفس . حقا اذا كانت تقلبات السوق واهواؤها هي الحكم الوحيد على قيمة النفس فان حاسة الانفة والكرامة او الاعتداد بالنفس تعرض حتما للتحطيم او الانحطاط .

وليس فقط قيمة النفس ، وخبرة الانسان عن نفسه ، تعرضان للهلاك .. بل يعرض ايضا للهلاك ، توحيد ذاتيته مع نفسه ، أو بمعنى أوضح مدى تطابق شعوره بالذاتية مع قواه الحقيقية . ان الانسان الناضج الخلاق يستمد شعوره بالذاتية من خبرته لنفسه : كانسان يعمل في اتجاه قواه . فالشعور بهذه الذاتية يمكن ان يعبر عنها باختصار بالعبارة « انا اكون حيث افعل ما اريد » ولكن بهذا التوجيه التسويقي يرى الانسان قواه كسلع غريبة عن نفسه . فهو ليس في اتجاه هذه القوى ، لانها قوى مقنعة عن نفسه ، اذ ان ما يهم هذا الانسان ، ليس هو تحقيق استخدام هذه القوى والتعبير عنها ، ولكن النجاح في « بيعها » في سوق الشخصيات . ان قواه واستخدام هذه القوى تعد اشياء غريبة عن النفس ، يتحكم فيها الاخرون . وعلى ذلك فشعوره بالذاتية يصبح امرا مهزوزا تماما مثل تقديره لنفسه . ويمكن التعبير عن هذا الاتجاه بالعبارة « انا حيث تريدني ان اكون » .

وحيث أن الانسان لا يستطيع ان يعيش في شك من ذاتيته ، فهو يجد الاقتناع بهذه الذاتية بشكل آخر . اذ يراها منتمية ليس الى نفسه أو لقواه ، ولكن الى آراء الآخرين عن نفسه . وهذا الموقف يجعله معتمدا اعتمادا كليا على الطريقة التي يراه بها الناس ، وبذلك يدفعونه الى الدور الذي فيه عرفه الناس ناجحا . ومعنى ذلك انه اذا كانت « أنا » في جانب و « قواي » في جانب آخر ، فانني سأرى نفسي في ضوء الثمن الذي أعرض فيه هذه القوى .

اما الطريقة التي بها أرى الناس ، فليست مختلفة عن هذه الطريقة كذلك . فان الاخرين ايضا في نظري هم سلع ، مثلما ارى نفسي . وهم لا يقدمون انفسهم كما هي ولكنهم يقدمون الجانب الذي يباع . والانسان الذي ينظر هذه النظرة سيرى الفوارق بين الناس حيث يختلفون من ناحية النجاح في الحياة ، والجاذبية في السوق الجارية ، ومن ثم تختلف اقدارهم لا لصفات شخصية أو مؤهلات علمية او لجاذبية طبيعية او لثقافتهم او لاهتماماتهم .. ان ما يتخذ اساسا للتقويم هو « النجاح في السوق » او هو القيمة التبادلية أو هو سعرهم في السوق . اما فرديتهم فلا قيمة لها اذ لم يعد التمييز يقرن بالفردية ولكنه يقرن بتلك القيمة التبادلية في السوق . وبدلا من ان نعنى بانماء الفردية ، نعنى فقط بانماء النجاح او انماء القيمة التبادلية . كذلك يغير هذا الاتجاه التسويقي معاني كثيرة . فالمساواة مثلا في اساسها تحمل معنى انسانيا . فاذا قلنا ان الناس جميعا قد خلقوا متساوين فمعنى ذلك ان كل الناس لهم نفس الحق الاساسي بان يعتبروا « كفايات » في ذواتهم لا كوسائل . ولكن اليوم قد تغير هذا المعنى من وجهة النظر التسويقية . فبدلا من ان تكون المساواة شرطا من شروط تنمية المميزات الفردية ، فقد صارت المساواة تعني انطفاء الفردية او انعدامها .

وبمعنى اوضح ان المساواة في نظر التوجيه التسويقي هو « اللافردية » . فالمساواة في معناها الحقيقي هي المبالاة بالفروق ، ولكنها اصبحت مرادفة لمعنى اللامبالاة والحق ان اللامبالاة هي الشيء المميز الذي يمتاز به الانسان المعاصر . اذ ان المبالاة هي العلامة المميزة التي تربط الانسان بنفسه وبالاخرين .

ولذلك فالتوجيه التسويقي يلون العلاقات الانسانية بلون اللامبالاة . ذلك ان الفرد اذا اهملت فرديته فان علاقاته بالاخرين ستصبح بالضرورة علاقات سطحية . اذن فلم تعد (الفرديات) هي التي ترتبط (بعلاقات) ولكن العلاقات اصبحت قائمة بين (سلع تبادلية) منفصلة عن فردياتها . ولم يعد الناس يهمهم ان يرتبطوا بما هو (مميز) او (مستقل) في الناس . وبعبارة اخرى لم يعودوا يهتمون بالارتباط بالفردية . فكل انسان مشغول بمعركة السوق يسهم فيها من اجل النجاح . وكل الناس يتقابلون ويرتبطون تحت ظروف السوق الواحدة (او على الاقل يؤمنون بانهم يفعلون ذلك) وكل انسان ايضا يعرف شعور الآخر الذي يشاركه القارب الواحد في الظروف السوقية الواحدة . وهذا الشعور اساسه الشعور بالوحدة ، والخوف من الفشل ، والتطلع لارضاء المشترين .

ان هذا الخلق السطحي للعلاقات ، الناتج من هذا التوجيه التسويقي يدعو كثيرا من الناس لان يعوضوا ما فاتهم بان يجدوا العمق والقوة عن طريق الحب الفردي ، ولكن ينبغي أن ندرك ان العلاقات الحبية في اية حضارة معينة هي ليست الا تعبيرا قويا عن الروابط السائدة بين الناس في هذه الحضارة . ومن اجل ذلك فسوف لا نتوقع ان الشعور بالغربة او الوحدة الذي يشعر به الانسان — الناجم عن التوجيه التسويقي — مما يمكن معالجته بالحب الفردي .

يتأثر الانسان المنهمك في سوق هذا العصر في تفكيره كذلك .

وينبغي ان ندرك ان للتفكير مستويين، الاول هو الادراك، والثاني هو التعليل والفهم العقلي العميق . فالوظيفة الاساسية او الاولية للتفكير هي ان يدرك الانسان بسرعة ، الاشياء التي تمكنه ان يستخدمها بنجاح . وهذا الادراك اذا نما واتسع افقه بالتربية السليمة المنتجة ، ادى الى ظهور الذكاء (العملي) بدرجة عالية ، ولكنه لا يؤدي الى

الفهم العميق ، او الى التعليل والمنطق . وهـذا فعلا ما ينصب على كل العمليات اليدوية حيث لا تحتاج لاكثر من المعرفة السطحية . اما التعمق الى لباب الظواهر ، فلا يمكن ان يصل اليه الانسان الا بالتعليل الناتج من الخبرة والمشاهدة والمعاناة ، والمراجعة الفكرية ، والتعديل الفكري ، كلما فتح باب الخبرة عن اشياء جديدة ، وكلما اتسعت امام الانسان الرؤى والآفاق المختلفة . ان الانسان لا يجلو «الحق» الا بهذه الطريقة . اما في سوق هذا العصر ، فان مفهوم هذا الحق — في هذا الجو التنافسي — يتغير ليصبح مفهومـا يتضمن معنى آخر هو سعة التكيف العقلي في الموقـف المعين ، ولا يتضمن الفهم العقلي وسعة التعليل الناتج من الخبرة الصافية الحقة . ان اختبارات الذكاء التي نعرفها هي في الواقع من النوع التكيفي ، وحق لنا ان نسميهـا اختبارات التوافق العقلي (٦) .

فان هذه الاختبارات تطبق مقاييس المقارنة او المطابقـة العقلية ، ولكنها لا تعني بالتحليل للظواهر المختلفة او تعيين خصائصها او تقويم قيمها . ان (منطق) هذه الاختبارات هو ان لا فرق بين مشكلة واخرى من حيث الاهتمام ، او من حيث الاهمية . ان كل مشكلة تعـرض امام الفرد ، يقابلها بنفس الاهتمام ويراها بنفس القيمة . ان المعـرفة اذن قد اصبحت — في منطق السوق — نوعا من السلع ، وهنا الانسان اصبح كذلك غريبا عن قـواه . انـه يختبر اساليب التفكير والمعرفة كادوات لانتاج اشياء تباع ، وحتى معرفة الانسان لنفسه (او لعلم النفس) التي كانت اساسا للفضيلة والحياة السوية ، وركيزة للسعادة ، قد اصبحت اداة لاقتناص الاشخاص ، او لاستخدامهـم استخداما سوقيا ، اي ان المعرفة صارت من ادوات البحث السوقي ، والدعاية السياسية ، والاعلان . . بغض النظر عن المبادىء . وقد امتد هذا الاتجاه فألقى ظـله عـلى النظـام التربوي والمدرسي . فقد اصبح (حشو المعلومات) لتقابل (حاجة السـوق) هي المهمة دون العناية بانماء الفرديات او القدرات والمؤهلات ، ودون رعاية الاهتمـامات الخاصـة والمواهب الفردية ، وما ليس له قيمة تبادلية .

ونحن اذا قارنا ، قلنا ان كلا من التوجيـه الادخاري ، والاستقبالي ، والاستغلالي ، هو توجيـه يميز صاحبه ، ولكن التوجيه التسويقي لا ينمي اي شيء كامن في الانسان، ولا اي نوع من العلاقة ، انما هو ينمي القدرة على التغير في العلاقات وفي الاتجاهات . ففي ظل هذا التوجيه ينمي الانسان الصفات التي يمكنه ان « يبيعها » . فليس هناك اتجاه خاص يسود الانسان . ولكنه الفراغ الذي ينبغي ان يملأ بالصفة المطلوبة . وهذه الصفة ليست صفة بالمعنـى الصحيح . ولكن الحقيقة انها دور معين مرغوب فيه فقـد يكون الدور الذي يلعبه الفرد او يمثله بعيدا عن حقيقـة تكوينه الخلقي ، فقد يتطلب المنصب المعين ان يظهر الفرد بالاحترام والامانة والاخلاص ووضع الثقة في الآخرين ، وقد يكون صاحب هذا الدور لا يبالي اساسا بهذه الصفات، بقدر مبالاته بما يحصل عليه اذا اتصف بها . ان الاساس الذي يقوم عليه هذا التوجيه التسويقي هو « الفراغ » او « عدم التميز » باية صفة نوعية ثابتة حيث ان اية صفة ثابتة ستصطدم حتما مع متطلبات السوق المتغيـرة . ان هناك من المناصب ما لا يتفق مع بعض انواع الخلق الفردي المتميز . ولذلـك فالسوق تفرض ازاحة هذه الانـواع الخلقية المتميزة ، ولا تفرض بطلان هذه المناصب نفسها .

وينبغي ان يفهم ان كلا من هذه التوجيهات الخلقية ليس منفصلا تماما عن غيرها . فقد يتصف انسان ما بالتوجيه الاستغلالي كصفة خلقية غالبة ، ولكنه مع ذلك يتخلـق بمزيج من التوجيهات الاخرى .

التوجيهات الخلقية والحضارة

ان الشيء الجدير بالذكر هو ان التوجيه الخلقي الغالب يتوقف الى حد كبير على الصفة المميـزة للحضارة التـي يترعرع الفرد في احضانها . ولكن كان هذا الموضوع مـن موضوعات علم النفس الاجتماعي التي تحتـاج الى شـرح مستفيض ، فانني اعرض هنا العلاقة بين التوجيه الخلقي المعين والظروف الاجتماعية التي تؤدي اليه ، في شيء من الايجاز . فليست هذه العلاقة مجرد تأثر الفرد بما يسود المجتمع من تشكيلات حضارية ومن نظم اجتماعية . ان التفاعلات الحادثة لاكثر تأثـيرا وعمقا . ان كل كيـان الشخصية للفرد العادي (في الطبقة المتوسطة) انما تصاغ في القالب الذي فيه تتشكل العلاقات بين الانسان والآخر. وكذلك يتحدد كيان هذه الشخصية بالتركيب الاقتصادي الاجتماعي للمجتمع ، وبالتشكيل السياسي كذلك . ولذلك فنحن نستطيع ان نستنتج من التحليل الكلي لموقـف فرد معين من افراد المجتمع ، ما هو التركيب الاجتماعي الذي يحيا هذا الفرد في ظله .

وسنعرض فيما يلي لكل نوع وعلاقته بالنظم السـائدة .

١ — ان **التوجيه الاستقبالي** ليظهر في المجتمعات التي يكون فيها حق استغلال طبقة لاخرى ، نظاما سائدا ومعترفا به ، بل وشرعيا فطالما ان الطبقة المستغلة (بفتح الغين) ليس لديها القوة على التغيير او حتى علـى مجرد التفكيـر فيه ، فان موقفها يكون هو موقف المستلهم من سادته القوة، المنتظر منهم الخير ، المستقبل منهم العطـاء . ومهما يكـن تافها ما ينتظره التابع او المسود ، فهو يشعر انه افضل مما لو حصل عليه بمجهوده هو ، اذ ان التركيب الاجتمـاعي يؤكد حقيقة عجزه عن الاعتماد على نفسه او على جهـده وفكـره .

واذا كانت الحضارة الامريكية المعاصرة تبدو كأنها تشجع

(1) Non-productive orientations (2) Receptive (3) Exploitative (4) Hoarding orientation (5) Marketing (6) Mental adjustment tests

الاعتماد على النفس واستنهاض الهمم وتنشيط المسئوليات، فان التوجيه الاستقبالي ينمو كذلك بطرق غير مباشرة . ذلك ان الحاجة لارضاء الرؤساء واشباع رغباتهم انما تقود الى الشعور بالضعف وعدم المقدرة مما يخلق هذا التوجيه الاستقبالي . ومن امراض عصرنا في القارة الامريكية وجود (خبراء) في كل مجال من مجالات النشاط ، وفي مختلف العلوم وفي شتى الشئون والفنون . وما على الناس العاديين — عندما تواجههم المشكلات — الا الاستماع الى هؤلاء الخبراء والى آرائهم ليتبنوها بسهولة دون بذل الجهد الفكري ، ودون الوصول الى الخبرة الحقيقية . ومرض آخر هو تلك الوسائل الحديثة للرفاهية والمدنية ، كسيارة تحتوي على مختلف وسائل الترويح والترفيه ، وغيرها من المخترعات او الرفاهية دون بذل الا القليل من الجهود . هذا المرض هو « الوصول . او الحصول . دون بذل الجهد » .

٢ — اما **التوجيه الاستغلالي** الذي شعاره «انني احصل على ما اريد » فيرجع اساسه الى الاسلاف الاقطاعيين والقراصنة ومنهم بارونات القرن التاسع عشر الذين استغلوا مصادر الثروة في انحاء القارة . فلم يكن لهؤلاء الراسماليين المغامرين من غاية غير ان يبيعوا بالثمن الغالي ما اشتروه او حصلوا عليه بالثمن البخس ، في سبيل الحصول على الثروة والقوة . ذلك ان السوق الحرة التي كانت سائدة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، كانت ظروفها تشجع قيام مثل هذا التوجيه الراسمالي . ولقد رأينا في هذا العصر ، الاستغلال الحقيقي في صورته العارية ، واعني به استغلال الثروة الطبيعية والانسانية لشعب يقهره الغزو من شعب آخر . فالشعب الغازي كان يدعي حق القوة ويبرز ذلك بقانون الطبيعة القائل ان البقاء للاصلح . اما الدماثة واللطف او الحب والرقة فقد كانت من علامات الضعف ، واما التفكير السليم فقد كان شغل الجبناء او المعدمين .

٣ — اما **التوجيه الادخاري** او التقتيري فقد وجد جنبا الى جنب مع التوجيه الاستغلالي في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر . ان النوع التقتيري انما يمثل النوع المحافظ اذ هو يوجه نحو اهتمامات الكسب او جمع الثروة بطريق الاقتصاد المنظم ، وحفظ ما اكتسب من قبل . ذلك ان الملكية لدى المدخر المقتر هي رمز لنفسه، ولحفظ هذا الرمز قيمة كبرى ، فهذا التوجيه قد منحه شعورا كبيرا بالامن والطمأنينة . ان الاهتمام بالملكية وبالاسرة ، في ظل الظروف الثابتة للقرن التاسع عشر ، قد خلق عالما مستقرا ومنظما . ومن هنا نجد ان اخلاقيات جماعة البيوريتان التي تبنى على ربط العمل والنجاح بالفضيلة والصلاح ، قد ساعد على تنمية الشعور بالطمأنينة والامن (وبالتالي ساعد على تدعيم هذا التوجيه الخلقي) وعلى ان يضفي على الحياة معنى روحيا وشعورا بالامتلاء !

ان هذا التركيب الذي يجمع بين عالم منظم ثابت ، وممتلكات ثابتة ، واخلاقيات ثابتة ، قد منح افراد الطبقة الوسطى شعورا بالانتماء ، وبالثقة بالنفس ، وبالكبرياء كذلك .

٤ — اما **التوجيه التسويقي** فليس من مخلفات القرن الثامن عشر او التاسع عشر . انه حتما ناتج من نواتج عصرنا الحديث . ان الاسم التجاري . والشعار . و (الماركة) قد اصبحت جميعها ضرورية بالنسبة للسلع وللناس كذلك .

ان (انجيل العمل) في نظر الناس — وفق هذا التوجيه — قد فقد قيمته الحقيقية — في حين ان (انجيل البيع) قد اصبح ذا قيمة كبرى . لقد تميز العصر الاقطاعي بالثبوت الاجتماعي ، اذ كان الانتقال من جهة الى اخرى في غاية من الصعوبة . ومن هنا لم يكن ممكنا ان يستخدم الانسان شخصيته لكي تدفعه للتقدم . اما في عصرنا التنافسي السوقي فقد اصبحت الحركة سهلة والتنقل ممكنا وخاصة في الولايات الامريكية . والشخص الذي يعمل في توزيع الحاجيات والسلع بنفسه ، متنقلا هنا وهناك ، ينتظره النجاح حتما . اما الشخص الذي يعمل منعزلا ويسعى منفردا ، ففرص نجاحه ضئيلة . ان من يسعى للنجاح في هذا السوق ، عليه ان يكيف نفسه مع منظمات عديدة كما عليه ان يوفق ملكاته وفق الدور الذي ينتظره .

وبالاجمال نقول ان سمة هذا العصر هي «اللاشخصية» و « الفراغ » و « اللامعنى » للحياة وآلية الفرد . هذه جميعا قد ادت الى عدم الاشباع ، والى الحاجة الى طريق للحياة افضل ، والى مقاييس اخرى مؤدية الى هذه الحياة الافضل .

اما اساس هذه المقاييس فهو التوجيه المثمر الخلاق . انه الخلق البناء الذي ينمي الاستعدادات الفطرية والمواهب والملكات — ومن هنا نحن نراه «الغاية» الكبرى التي يجب ان ينطوي تحتها كل نشاط انساني .

بور سودان — **اميل توفيق**

لاحت له المقبرة من بعيد تعج باشباح الناس فتثاقلت خطواته حتى اصبحت اشبه بسير السلحفاة. كان تحت ابطه كيسان فضفاضان من الخام الابيض يضغط عليهما بقوة . وخيل اليه ان القبور تتهادى نحوه فجمدت قدماه حتى باتتا قدة حجرية .

لم يزر الجبانة الا مرة واحدة في عمره ، رغم انه قطع الثلاثين . كان ذلك يوم اصطحبته أمه معها ، وهو لا يزال صغيرا ، ليزورا قبر والده ويضعا فوق اديمه الرطب اغصانا صغيرة خضراء وشعر برعشة تنتاب جسمه حتى كاد تفتته ، فلم يأت اليوم ليزور قبر والده وليضع فوق ترابه ازهارا ملونة ، كانت مهمته اشق من هذا واكثر عناء .

اخذ احمد يلعن في صوت مهموس البلدية ومشاريعها حتى تنبه الى نظرات الناس المسرعين تحدق به من كل صوب ، فتابع مسيره متسلقا اكمة كهلة ، متجها صوب المقبرة المرتفعة وهو لا يزال يلتفت يمنة ويسرة كطفل جبان .

اطل على المقبرة فارتعدت فرائصه كانت الشمس قد بدات تبعث بعض خيوطها الذهبية فتصطدم باحجار القبور الكئيبة . وثمة عدد من الناس غير قليل، قد ولج الى المقبرة بوجوه واجمة يرتسم على قسماتها المتنافرة اشمئزاز غريب ، ولم يلبث احمد ان انضم الى هؤلاء الناس وراح يهامسهم ويتحادث معهم بقرف احاديث تافهة.

مضت ثلاث ساعات على احمد وهو يتلوى بقامته المنتفخة متنقلا بين احجار سمر كان بعضها متكئا كناعس غلبه النوم واخرى ممددة كحيوان شرس لقي مصرعه . لقد شعر لاول مرة بمعنى الزمن مدركا ما يحمل بين طياته من انتظار قاتل .

وجاء دوره اخيرا ، ورغم انه مل الانتظار الا انه تمنى كليا الا يأتي دوره الى الابد . وهم ان ينصرف ، وان يصرخ في وجه المشرف والعمال «هيا حطموا العظام ليس لي قريب بينها » فانعقد لسانه بينما ضربات المعول تشق طريقها الى داخل القبر .

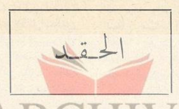
ومادت الارض تحت قدمي احمد ، وحسبها ستبتلعه حالا عندما كشف الحفار عن هيكل عظمي يتمدد عاريا في أعماق القبر وقد تعلقت به خرق صفراء مشوهة ، وسمع لحظتها صوتا خافتا :

ـ اللهم احمنا من الوباء هذا العام ..!

واذ تسربت الى انفه رائحة نتنة ترددت أصوات ميتة فيها خشوع ورهبة :

ـ آمين ... آمين ..!

اخذ احمد يلعن من جديد البلدية ومشاريعها ، لقد اوجبت عليه ان ينقل عظام اخيه الحاج وجيه ووالدته



بقلم جهاد الكاتب

الى المقبرة الجديدة خارج البلد ، نظرا لعزمها على شق طريق فسيح . وان لم يفعل فانها ستعمد الى قذف تلك العظام في حفرة واسعة اعملتها خصيصا للعظام المجهولة . كان باستطاعته أن يتجاهل نداء البلدية ، وكان بامكانه ان يصم اذنيه فلا يسمع همسات الفضوليين ، ولكن شيئا غريبا كان يدفعه ليحمل الكيسين تحت ابطه ويعود بهما ممتلئين بالعظام ليدفنهما من جديد . لقد تجدد الموت في خاطره فعادت ذاكرته سريعا الى سنين خلت ، واخذ يستعيد حوادثها بنهم ، فتمثلت امامه وكأنها



تحدث اليوم بل الساعة ..

انه لا يزال يذكر كيف مات اخوه الحاج وجيه وشيعت جنازته بوقار وخشوع . لم يخرج يومها مع المشيعين بل اكتفى بالوقوف في زاوية السوق يرمق بعينيه النديتين ذاك الصندوق الخشبي المحلى بوشاح مزركش . وكان ثمة طربوش قائم يعتلي التابوت متمايلا معه وكانما هو يبكي فراق صاحبه . لقد اطرق احمد راسه لحظة مرور التابوت من امامه متمتما بالفاتحة . كان بوده لو حمل على كتفه طرفا من النعش وسار به دون توقف الى مقبرة تلوح كالسراب وكان بوده ايضا لو قبل اخاه قبل ان يوارى جسده التراب .. ولكن ما حيلته ...؟ لقد اوصى الحاج وجيه قبل موته بايام ، بل والح في طلبه ، بالا يشيعه اخوه يوم رحيله عن الدنيا ونفذت وصيته بحذافيرها لاعتقادهم بان الميت يشعر بما حوله شعور انسان مشلول الحركة . ولم يكن بين ألاخوين شيء يذكر سوى شعور غريب لازمهما منذ الصغر ربما مبعثه الاصلي ملاطفة ابيهما لواحد منهما دون الاخر ، لقد تحول هذا الشعور الغامض الى حقد دفين كانت تحركه الحوادث وتزيد الايام من ضراوته .

الا أن السبب الحقيقي الذي لا يريد احمد ان يقربه هو الميراث . فقد ورثا ، هو واخوه ، عن ابيهما تركة لا بأس بها ولكن اخاه الحاج وجيه استطاع بحنكته ومساعدة امه وتأييد الناس له ان يتلاعب على القانون لتكون له حصة ألاسد من الغنيمة .

وفي هذه المعركة وقف احمد وحيدا في الساح .. امه تخلت عنه نهائيا ودابت على اكثار الدعاء عليه ، اصحابه تخلوا عن لقائه .. اخوه اصبح كالنسر الجائع لا يشبع نهشا وتجريحا في سيرة احمد وسلوكه .

واشد عجبا من هذا ان الحاج وجيه الذي لم يترك من ورائه ذرية ترث كتب في وصيته الدارين الكبيرتين لاحد مشايخ الطرق الدينية نكاية

باخيه وتشفيا منه .

ورغم هذا كله فان احمد كان يؤمن ايمانا لا يتزعزع بان الايام كفيلة بايجاد حل جذري لخلافه مع اخيه.. ولكن خاب فأله .. وطاشت امنيته فلم تصب ألا قلبا كالحجر في قساوته وصدرا كالحفرة العميقة تمتلىء حقدا وبغضا له ..

انه لا يزال يذكر كيف وقف في نفس الزاوية التي ودع منها نعش اخيه بنظراته المتألمة ليزرف الدموع على مسيرة امه الراحلة ، فقد لحقت بابنها البكر بعد اربعين يوما من وفاته واصرت هي بدورها الا يخرج احمد وراء تابوتها تضامنا مع ابنها .

لقد اثارت دموعه يومها كل من كان حاضرا في السوق ولكن احدا منهم لم يقدم له اي كلمة عزاء او مواساة . كان كالغريب بين اهله ومعارفه ، لقد آلمه انهم ينفرون منه دون سبب . والحق ان لكل انسان خطيئاته ونزواته الخاصة التي كثيرا ما لا تروق اعين الناس ، ومع ذلك فان الله يغفر اعظم الذنوب بالتوبة والناس لا يغفرون اتفه ذنب او خطيئة . ولهذا كانت تمتلىء نظرات احمد بحقد لا شعوري على هؤلاء الحاقدين الاغبياء الذين يكرهونه بعناد لتصلب في حقه وتشبث برايه .. ولعل اسبابا هزيلة مجهولة حملت الناس على اجتناب قربه ، ربما هي الغيرة والحسد والطمع في مكانته وعلمه واسلوب عيشه ولكن الشيء المهم انهم نبذوا واحدا من جنسهم بقسوة وكراهية دون ان يعطوا لانفسهم التبرير الواضح لتصرفهم ذاك .

كيف لا يحمل احمد الحقد بين ضلوع صدره طالما الراحلون عن الدنيا يرفعون احقادهم على اكتافهم وينقلونها معهم الى قبرهم المعتم دون ان يفكروا في طرحها او حتى اخفائها تحت خيوط الكفن . ان الحاج وجيه وامه لقناه درس الحياة الاول فجاء متأخرا وغامضا . لقد لمس احمد عجز الانسان عن استعمال عقله كمقود امين يدفع به الى شاطىء السعادة . بل ان الانسان اضعف من ان يتخلى عن مكونات الشر القابعة في زوايا نفسه . فالحقد والغيرة والحسد والطمع .. كلها اجزاء تافهة جعلها الانسان بمحض اختياره من مقومات وجوده المغرق في الغموض والفوضى .

نفض احمد ذكرياته وافكاره المؤلمة تلك على صوت الحفار وهو يردد بخشونة :

ــ يا استاذ .. هات الكيس ..!

ولوى احمد رقبته وقدم الكيس بيد مرتجفة . كانت كل احاسيسه تتشابك وتتصادم فيشعر بصوت صدامها المؤلم وكأنها اضراس نخرة تصطك بقسوة .. وعادت الصور تتابع في مخيلته .. وكرة ثانية تمثل موت اخيه ، وشعر احمد بجسده يتدحرج في هوة سحيقة ليس لها من قرار ، وراى نفسه يسقط من سطح بناء مرتفع .. وافاق من احلامه فجأة على صوت ارتطام بين قدميه وكان الحفار قد ملأ بالعظام الكيس ولف فوهته حول نفسها وعقدها باحكام ثم قذف بالكيس صوب احمد . قال الحفار باقتضاب بعد ان مسح عن جبينه عرقا اسود :

ــ اين القبر الثاني يا استاذ ؟

فاشار احمد في الحال باصبعه الراعشة الى قبر وضيع يتداخل بين قبرين مرتفعين :

ــ قبر امي .. هذا هو .

وبدا شبح ابتسامة على وجه الحفار لم يدرك احمد مبعثها .

كان عدد من الصبيان قد تجمع حول القبر ، وتهامسوا وهم يرقبون ضربات المعول تهد سقفه . واحس احمد بشعور غريب .. ان هؤلاء الصبية كانوا مجرد لا شيء .. ثم تلمسوا طريق الدنيا العابث وغدا يكبرون .. ثم يهرمون وبعدها يدفنون في حفر صغيرة معتمة ولعن احمد في سره الحياة اللاهية ، فهي ليست الا لعبة تافهة لا تجيد الا الخلق والموت موزعة بينهما السعادة والشقاء دون العدل .

وبرزت لاحمد قضية مفاجئة : من سيحمل الكيسين الى المقبرة الجديدة ...؟ وزاغ بصره بين وجوه الواقفين وتراقصت نظراته على جدران القبور الحزينة ثم تنقلت فوق ثياب الحفار وهبطت بعدها الى الكيس القابع بين رجليه كعبد ذليل . لم يحسب ان الجسد يفنى بمثل هذه السرعة ، لقد سمع ان الجسد يقاوم خمس سنوات على الاقل حتى يتحول الى هيكل عظمي تتآكله الديدان الصفراء .. من سيحمل الكيس ..؟ من سيحمل الكيسين ؟ لقد انهى الحفار عمله والقى بالكيس الثاني الى جانب الاول وهو يبصق بحدة حتى جف لعابه .

دس احمد قطعة معدنية في يد الحفار فشكره هذا باشارة من يده المغبرة بان رفعها فوق راسه وهي مطبقة . حمل احمد في كل يد كيسا وسار متعثرا بين القبور ولا زالت عيناه طائشتين لا تكادان تجدان مأوى ترقدان فيه . ولم يقو على التفكير في الاسباب التي دفعته لان يحمل الكيسين دون ان يواصل البحث عمن يحملهما بالاجر .

كان قد وصل الى الطريق العام عندما اخذت شفتاه تتمتمان بالفاظ غامضة . ولم يعد يذكر اي الكيسين فيه تقبع عظام اخيه او امه . ولم يأبه لهذا بل راح يلعنهما سوية وكأنهما عدوان لدودان . لقد حقدا عليه بقسوة وحملا حقدهما معهما الى قبرهما الصغير . ضحك احمد وتعالى صوته حتى لفت سمع المارة . لم يكن يظن انه سيحمل يوما امه واخاه البدين بمثل هذه البساطة .. انهما الان مجرد عظام بيضاء ، لو لم يحملها الان في كيسه لكانت كتلة

الحلم القديم

لما مضى الحلم القـديم رايتني	ارنـو الى الليل البهيم واسأم
وابوح بالسر الدفـين ، وطالما	قد كنت اشرق بالغرام واكتم
عجبا ، ايخلو اللب بعـد هيامه	ويصح من داء الغرام ويسلـم
كفراشة خلعت غلالة امسهــا	وكمارد أبــلى رؤاه القمقـم .
اين الاماني لامعات في الـدجى	ونـداؤهـا المتـوهج المتلعثم ،
خلب الفؤاد وميضها، هلا درى	كذب المنى ذاك المحب المغرم ؟
اين الليالي الحالمات وسحرهـا	وصباحهــا المتعثر المتكتم ،
يمشي الهوينا في السماء كأنه	لص يباغتـه الضياء فيحجم ؟
ولت كسحب الصيف بددها السنا	فالبدر خلد سرهـا والانجم .

بغــداد — مير بصري

مبعثرة في حفرة عميقة مع بعـــض العظام الغريبة ... وشعر أحمـــد بالفخار وضحك ثانية وبصوت أعلى .. هذا هو الحاج وجيه وتلك امـــه .. تبا لكما ساحرقكما في نـــار الارض .. بل ساحطمكما واحـــول عظامكما الى هشيم .. هذه فرصتي وسانتقم من هؤلاء الناس الحاقدين .. لقـد رفضوا يومـا ان اشيـــع جنازتهما او حتى اسير بعيدا عنهما ..انهملا يدرونما احمل فيكيسي.. انهما امي واخي .. نعـــم . انني احملهما بيدي الضعيفتين .. انهما كومتان عظميتان .. اين الحقد ..؟ بودي لو اراه وان اكسر جمجمة اخي لاعثر على ديدانه القاتلة .. لست ماحدا يا حاج وجيه .. لست كافرا كما قال شيخك ألشره .. » واحس احمد بحركة داخل الكيسين وخيل اليه وكانه يسمع صرير العظام وهي تتدافع نحو بعضها وكأنهـــا تـود الهروب فاعلى من صوته : « لقداكلت ثروتي وشاركتك امي .. لقد سمعتك كثيرا . كان علي ان اصمت دائما .. انت تكرهني وانا اكرهكم جميعا .. لكنك حقود .. حقود الا تـسمعنـــي يجب أن تسمعني الان ... »

واخذ احمد يردد هذه الكلمات صارخا باعلى صوته وكان قد وصل الى السوق فالتف من حولـه جمـع من الناس والدهشة تغطي قسمـات وجوههم الميتة ... وبداوا يتهامسون .. وتململوا في وقفتهم مستفسرين، كان احمد لا يزال على حالتـه « الا تسمعني .. يجب أن تسمعني » . وفجأة رمى احمد احد الكيسين ارضا وهم بان يدوسه بقدميه ولـكن بعض الواقفين اندفعوا يمنعونه عـن ذلك وهم لا يدرون حقيقة الامر . قـــال احدهم :

– صلي على النبي يا استـاذ .. صلي على النبي !

ولفظ الحاضرون :

– لا تفلت جنونـــك .. الصبر طيب .

– ضاع الرجـل .. لا حـول ولا قوة الا بالله !..

– ماذا جرى يا استاذ ..؟

– اخوه ظلمه ..

– يستأهل ..!

اختطف احمد كيسه الثاني مـن الارضوشق لنفسه طريقا كثور هائج، وهو يهذي، حتى ابتلعه الزقاقمتجها صوب البيت .

كان يعربد فلحقـه صبيان الحي متباطئين من ورائه. كان احمد حتى تلك اللحظة لا يدري لم حمل الكيسين الى هذا المكان . لقد كان في ثـورة حاقدة تتناثر منها شتـائم بشعة . وكانت رؤوس عدد من النسوة قـد اندفعت عبر النوافذ وعبر الابـواب تستجلي الخبر بثرثرة معتادة.وقبل ان يدخل احمد البيت حـدق فـي الكيسين ثم رفعهما عاليا وهوى بهما ارضا ثم داس فوقهما وعبر بـــاب البيت واغلقه من ورائه .

التف الصبيان حول الكيسين .. وتهامسوا . .وتبادلـوا النظـرات وجبنوا عن فتح واحد منهما وكـــان ثمة صوت من الداخل يجلجل دون معنى والصبيان يلفطون حتى ملـوا وقفتهم وكادوا ينصرفون وفجأة فتح الباب بهدوء وخرج احمد بارد الوجه فانصرف الصبيان يتسابقون هربا . رفع احمد الكيسين بيديه الضعيفتين وعيناه مسدلتا الجفنين وثمة ابتسامة شاحبة ترتسم على شفتيهالصفراوين، وسمع صوت امراة مبرقعة تتحدث مع جارتها بهمس مزعج فاسرع خطاه حتى غاب وراء المنعطف ...

حلب — جهاد الكاتب

طبقة الفهماء

بقلم حسن الكرمي

من « العروة الوثقى » في لندن

***

اقترح علي احد الاصدقاء بعد قراءة عدد من هذه المقالات ان اكتب شيئا افسر فيه بعض المصطلحات التي ترد في معرض الكلام عن طبقة الفهماء . واخبرني هذا الصديق — وهو على حق — ان كثيرين من الكتاب والادباء بل ومن الخطباء والسياسيين يستعملون كلمات ومصطلحات وعبارات لو سألتهم عن معانيها ومدلولاتها الصحيحة لتوقفوا وتحيروا ، لان استعمالهم لها لا يخرج عن حد الترديد الببغائي في اغلب الاحيان . وكنت على وشك العمل بهذا الاقتراح ، لولا انني ادركت ان العمل ، معناه استجهال للقراء من جهة وادعاء بالعلم من جهة اخرى ، وفضلت ان ارجىء تنفيذ رغبة هذا الصديق الى فرصة اخرى ، وقررت ، اذا اغتنمت هذه الفرصة ، ان اتحاشى الاستجهال والادعاء قدر الامكان . وليس المهم في نظري ان نتكلم هنا عن الادباء والخطباء والسياسيين في هذا المجال ، لان من طبيعة العمل الذي يقوم به هؤلاء ان لا تستعمل الكلمات والعبارات فيه استعمالا صحيحا دقيقا ، وانما المهم ان نتكلم هنا عن المفكرين والفهماء ، لان المفروض ان يستعمل هؤلاء كلماتهم وعباراتهم على الوجه الصحيح بحكم التجائهم الى المنطق والاسلوب العلمي في ابحاثهم وكتاباتهم . والفرق بين الحالتين ان الادباء والخطباء والسياسيين يستعملون الكلمات بمعانيها العاطفية في حين ان المفكرين والفهماء يستعملونها بمعانيها المجردة عن العاطفة . فالمفكر يقول مثلا : (التناصر عماد المجتمع) ولكن الاديب او السياسي يقول : (لا تقوم للامة قائمة الا اذا اعتمد الاخ على اخيه وكان الناس كالبنيان يشد بعضه بعضا) . والفرق بين العبارتين ان عبارة المفكر يمكن تحليلها الى عوامل اولية بسيطة ، في حين ان عبارة الاديب او السياسي فيها من الكلمات العاطفية ما يجعلها بعيدة عن ذلك التحليل . فكلمة (امة) تختلف عن كلمة (مجتمع) ، لان الاولى عاطفية والثانية علمية . ثم ان كلمة (اخ) وعبارة (يشد بعضه بعضا) لهما لون عاطفي . وهذا يذكرنا بالفرق بين كلمة (بلد) وكلمة (وطن) ، لان كلمة (وطن) لها معنى عاطفي ، وليس لكلمة (بلد) مثل هذا المعنى . والامثلة على ذلك لا تعد ولا تحصى ، ولكننا نكتفي بهذا القدر البسيط تنبيها للقارىء الكريم .

والاقوال العاطفية قابلة للاثبات وللنقض في آن واحد ، بحسب وجهة النظر . واعني بالاقوال العاطفية الاقوال التي ليس لها من المبررات الا انها صادرة عن غرض معين ومعبرة عن عاطفة معينة . ومن ذلك مثلا انني قرات في احد الاحاديث السياسية جملة لاحد الكتاب قال فيها : (لو نالت الجزائر حريتها لكان ذلك ضربة للعالم الحر) . فجملة من هذا النوع قابلة للاثبات من حيث وجهة الكاتب وقابلة للنقض من حيث وجهة الجزائر مثلا ، وذلك في وقت واحد . وامثال هذه الجملة كثيرة ، وخصوصا في ميدان السياسة . ويكفي للقارىء ان يتذكر شيئا من القضايا السياسية العالمية في الوقت الحاضر ليدرك ان الخلاف القائم حول هذه القضايا هو خلاف مرده في الغالب الغرض والهوى وليس التحقيق النزيه والحكم المجرد . ولما كانت العاطفة هي العامل المسيطر في هذا المجال فان العقل المنطقي يقف مكتوف الايدي عاجزا عن العمل ، ولذلك لا يؤمن الطرف الواحد بحجج الطرف الاخر ، وتبقى الحقيقة مفقودة ، لا يمكن الوصول اليها ، ولا يكون للاسلوب العلمي والتحديد المنطقي اي مجال . وانما تكون الحقيقة في جانب الطرف الاقوى مثلا ، او في جانب الطرف الذي ننتفع منه وهكذا . وما اكثر الحوادث التاريخية التي لولا النجاح الذي رافق اصحابها لكانت سببا في النقمة والاستنكار . وهذا يذكرني بقول القطامي :

والناس من يلق خيرا ، قائلون له : ما يشتهي ، ولام المخطىء الهبل واعرب المرحوم احمد شوقي عما هو من هذا القبيل بقوله :

لا خير في منبر حتى يكون له — عود من السمر او عود من القضب

ومن ذلك ايضا القول المعروف : الحق في جانب القوة . وفي رواية (الجريمة والعقاب) للكاتب الروسي الشهير دستويوفسكي فكرة اساسية من هذا النوع . وخلاصة هذه الفكرة ان الناس في هذه الدنيا قسمان : قسم عادي وديع مطيع لا يطمع من العيش الا انه يأكل ويشرب ويتناسل ويرضى ، وقسم فائق طموح مكافح يريد السيطرة على غيره وهمه افناء الحاضر في سبيل تغيير مجرى الاحوال وايجاد مستقبل يكون افضل بدون مبالاة بالقوانين والشرائع ، ومن هذا القسم الاسكندر ونابليون مثلا . وقد اقترف بطل الرواية (راسكو لنيكوف) جريمة شنعاء لكي ينقل نفسه من جماعة القسم الاول الى جماعة القسم الثاني . وفي راي هذا البطل ان زعماء الامم كانوا مجرمين لانهم خرقوا حرمة القوانين القديمة وانتهكوا قداسة الاديان السالفة وسمحوا بالقتل والتخريب للقضاء على مناوئيهم من المحافظين على تراث اجدادهم المدافعين عنه بشجاعة وبسالة . هؤلاء الزعماء ، رغم هذا الاجرام ، يحترمون ويقدسون فيما بعد . لانهم نجحوا في اعمالهم . ويرى دوستويوفسكي في روايته ان القسم الاول من الناس مخلوق لان يطيع ويسلم القياد لغيره بحكم واجبه في هذه الحياة وان القسم الثاني مطبوع على حب السيطرة وحب

القضاء على الماضي والحاضر ، ولا يتحرج افراد هذا القسم عن اقتراف الجرائم المختلفة وارتكاب القتل والتعذيب في سبيل غايتهم . فالقسم الاول يكافح ويناضل ويقاتل ضد افراد القسم الثاني للمحافظة على حاضره وماضيه ، فاذا اخفق في ذلك استسلم للزعيم الثائر واخذ يقدسه بعد ان كان يقاتله . فالناس بين محافظ مسالم ومجدد مخرب وهكذا . ولكن التخريب نفسه او الاجرام قد يؤدي الى رفع مكانة المخرب الى مصاف الزعماء والانبياء ، اذا نجح هذا المخرب في عمله وانتصر على مناوئيه واعدائه من المحافظين . وفي هذا مثال ساطع على ان الثورة الاجتماعية تكون حسنة او سيئة بحسب الجانب الذي يهمه الامر ، ولا تكون حسنة الا اذا نجحت . وتكون عادة ، كالاقوال العاطفية التي ذكرناها ، قابلة للنقض وللاثبات في آن واحد .

اعود فاقول ان المفكرين والفهماء يختلفون عن السياسيين والخطباء الشعبيين من حيث انهم يستعملون كلماتهم وعباراتهم استعمالا مجردا عن العاطفة بعيدا عن الهوى ، حرصا منهم على ان لا يخلقوا في ذهن القراء صورا للامور غير الصور الحقيقية . ولكن لما كان المفكرون والفهماء ممن يهتم بتنوير الشعب حول القضايا الخطيرة وبأفهامهم حقيقة الاوضاع فأنه لا بد لهؤلاء من لغة ومصطلحات يستعملونها في هذا التنوير وهذا الافهام بدون لبس او غموض . وعلى هذا جاء القرآن الكريم بلغة قريش التي اجمع عليها العرب وجاء قرآنا عربيا مبينا ، ولم يأت غريبا ولا في لهجة من اللهجات . ولذلك يجب على المفكر اذا تكلم ان يتكلم بلغة ومصطلحات مفهومة لدى سامعيه او قرائه ، لانه لا يخرج عن كونه داعية ، والداعية ملزم بحكم دعوته ان يكون واضحا مفهوما لكي ترسخ دعوته في الاذهان . ولكن كيف تكون هذه المصطلحات مفهومة ؟ وكيف يستطيع المفكر ان يوجد التواصل في الافكار بينه وبين الشعب ؟

يجب ان تكون الافكار المدعو اليها من نتاج التفاعل الذهني في المجتمع ، تطورت وتنشأت بتأثير الحركات الاجتماعية والاحتكاك الفكري الحر بين الافراد . فهي لا بد ان تكون افكارا وطنية مفهومة ، ولها تاريخ او اساس تقوم عليه . ومعنى ذلك ان الافكار المستقاة من مجتمع مختلف اخر تبقى غريبة على الاذهان ولا تجد لها في النفوس صدى ، ويبقى التعبير عنها سقيما غير مفيد ، لان هذا التعبير يستعمل كلمات او مصطلحات ليس لها صور مقابلة في اذهان القراء او السامعين . وهذا ما نجده كثيرا في المصطلحات التي نستعملها الان في اللغة العربية ، لان هذه المصطلحات لم تكن ناشئة عن تفاعل بين الفكر والواقع الاجتماعي العربي ، وانما هي مصطلحات مترجمة عن تفاعل بين فكر اجنبي وواقع اجنبي . والامثلة على ذلك كثيرة . لنأخذ مثلا هذه الكلمات والعبارات : الاشتراكية ، الجدلية المادية ، تكافؤ الفرص ، الوجودية ، حكم القانون .

بل لنأخذ كلمات ابسط من ذلك كالكلمات التالية : الدولة ، المواطن، الحرية، القانون ، السلطة وغير ذلك . ولنتساءل : ما معنى هذه العبارات والكلمات ، وهل لدينا في اذهاننا صورة واضحة عن كل كلمة او عبارة لو فحصنا الامر لوجدنا اننا في الحقيقة كثيراً ما نستعملها ، ونراها مستعملة بدون ان يكون لدينا صور ذهنية تكونت وتوضحت مع الايام . فنحن انما نترجم الكلمات الاجنبية الى اللغة العربية ، ولكن العرب في حياتهم الاجتماعية لم يكن لهم نفس المفاهيم التي نتكلم عنها، بل هي مفاهيم غريبة جاءت الينا من مجتمع غريب .

ويجدر بي هنا ان انتقل الى موضوع شائك وهو موضوع الترجمة . فقد لاحظت في المدة الاخيرة ركودا في التفكير الاصيل بين من نسيمهم بالمفكرين وراح هؤلاء يستقون من معين فكري اجنبي ، واضربوا عن التفكير في واقعهم الاجتماعي واستنباط الافكار الوطنية النابعة من هذا المجتمع . ويظهر ان هؤلاء ، بحكم تتلمذهم في الفكر على الاساتذة والعلماء الاجانب ، اختاروا اسهل السبيلين واقرب الطريقين ، فتهافتوا على الافكار الاجنبية لانهم وجدوا هذه الافكار مشروحة سهلة التناول في المؤلفات والكتب فتشربوها بسرعة ، ثم قذفوا بها الى الشعب ولكن بلغة سقيمة واصطلاحات عقيمة لا تمت الى الفهم بصلة . فهم اخفقوا من ناحيتين : الاولى انهم نقلوا ولم يبدعوا ، والثانية انهم ترجموا ولم يفيدوا . وعلة ذلك ان الكلمات التي استعملوها بحكم النقل والترجمة لم يكن لها مدلولات في الاذهان ، لانها كانت من نتاج تفاعل اجتماعي اجنبي . وفي رأيي ان المترجم الذي يترجم كتأبا ليس في اذهان القراء صور ذهنية تساعد على فهمه خير له ان لا يترجم ذلك الكتاب . والافضل ان يقرا الكتاب في لغته الاصلية او في لغة قوم لديهم تلك الصور الفكرية .

اذكر على سبيل المثال ان صديقا شكا الي يوما انه قرا شيئا من كتاب (الحب والحياة) لاميل لودفيغ وترجمة عادل زعيتر ، ولم يفهم منه ما يستحق الذكر ، وسألني ان آخذ الكتاب لارى اذا كان الكتاب غير مفهوم فعلا . فأخذته وقرأته ووجدته فعلا غير مفهوم في كثير من الاماكن . وعللت عدم المفهومية هذه بأن المترجم، رغم مقدرته الفائقة ، لم يجد في اللغة العربية كلمات تتجاوب مع فكر المؤلف وتتطابق في المعنى مع الكلمات الاجنبية . ولذلك كانت الترجمة قلقة ، وفقد الكتاب المترجم الفائدة الكاملة منه .

واذكر ايضا ان استاذا في مدرسة التجهيز (او مدرسة عنبر) في دمشق ترجم كتابا افرنسيا في علم النفس او الفلسفة ، بعد عودته من السوربون في باريس ، ودفعه الى الطلاب ليدرسوه . فقراه الطلاب ولكنهم لم يفهموه . وجاء احد الطلاب الى الاستاذ وقال له : « يا سيدي ، قرات كتابك عشر مرات فلم افهمه » فقال

الجثة

كانتالشمس على الافق الرمادي .. فيبلادي
حمما تصطخب
فيسيل الذهب
لؤلؤا . ماسا . عقيقا . لازوردا . وزبرجد
تترك الافق مورد
كفتاة تتجرد
مرسم يصطخب
كل لون فيه يحيا
كل شيء فيه دنيا .

•

ومضى الوقت ، كموج النهر ، يمضي فيهدوء
في غنى ، يشبه صمت القلب ساعات الوضوء
والسنا ، كالسيف ، فضيا مذهب .
ظل في الماء يغني ، يتذبذب
لم يكن ثمة الا مغرب ، عاف تخومه
ومضى يطوي رسومه
كان ليل يصقل الصمت نجومه
ودجى ، لملم ، اخفى كل شيء
كل ظل ، كل دفء ، كل فيء .

•

وعلى الشاطيء أرسى ظله ... ثم تموج
كانت الامواج تمضي ، تتلاشى ، تتوهج
دائما كالزمن المسرع من مهد الى لحد
تحمل الامس الى غد
كان في عينيه اصرار على شيء مؤكد

وبدت ثم رؤى ، تطفو ، تعالى ، تتمدد .
هي ماضيه يعيش اليوم ، يحيا يتجدد
وعلى الضفة لاح الامس ، كالحلم المبدد
كان يلتم ، ويدنو ، يتنامى ، يتجمع
ثم لا يلبث ان ينحل في الليل المقنع
نقطة سوداء، تعالى ، في الافق ولا شيءسواها
ليس غير الصمت يطوينا ... كما كان طواها
ليس غير الزبد الباقي ، سوى الذكرى ،
سيجتر صداها
عالم ما ملكت كفاه ، الاها ... عداها

•

وبصمت كانفتاح الورد في الفجر تنفس
مشرق الشمس
هبت الريح،ومرت نسمة،فاستيقظ العشب وهسهس
ودنا الموج من الشاطيء ، حيا ، وتلمس
قال عصفور لعصفور من « الشيء » الممدد
ودنت انثى وقالت ، انه غصن مورد
انه ما كان يولد
ما اسمه ما اسم ذويه
قالت : الامواج ترتد ... سليه
« اسمه ، ما كاد يولد »
لم يكن ماض له ، ليس له غد
ذاك ما ابقى لنا من امسه
ذلك الهارب من عالمه ، من نفسه
ذلك الشيء المخلد

بغداد — صفاء الحيدري

له الاستاذ : « اقراه عشر مرات اخرى » . هذا بالطبع جواب سخيف .

والذي اريد ان اقوله هنا هو ان المفكر او الاديب سواء ترجم او الف يجب عليه ان يستعمل كلمات او مصطلحات يفهمها الناس ومن السخف من هذا المفكر او هذا الاديب ان يقول كما قال الشاعر من قبل :

علي نحت القوافي من معادنها
وما علي اذا لم تفهم البقر

لان للمفكر رسالة ، ولا يمكن لهذه الرسالة ان تصل الى الغير الا عن طريق اللغة المفهومة . وللمترجم ايضا رسالة ، لانه يريد ان ينقل افكار مؤلف اجنبي الى القراء العرب . فيجب عليه اولا ان يصدق نفسه ويتحقق اذا كان هو قد فهم ما يقوله المؤلف ، واذا كان في نفسه القدرة الفكرية واللغوية على نقل افكار هذا المؤلف الى القراء العرب . ولكن الذي لاحظته ان كثيرين من المترجمين يعتقدون انهم قادرون على الترجمة لمجرد فهمهم للكتاب الاجنبي ، كالذي يجمع الكتب عن موضوع معين ويخيل اليه انه قد فهم الموضوع . وفي السوق الان كتب مترجمة كثيرة كان يجب ان لا تترجم بالشكل الذي ترجمت فيه ، لان الترجمة كانت غشا من جهة ومضيعة للجهود والمال من جهة اخرى ، بالاضافة الى فقدان الفائدة .

لندن — حسن الكرمي

توماس مان ورواية طونيو كروجر

بقلم جورج سالم

* * *

وصف توماس مان ، بحق ، بانه الكاتب الذي صور انحطاط الطبقة البورجوازية في المانيا ، واتيح له ان يكون ابرز ممثلي الادب الالماني في النصف الاول من القرن العشرين . ولقد خلف هذا الروائي الكبير مجموعة من الآثار الروائية الضخمة التي تعكس عبقريته واصالته . وقد جاءت جائزة نوبل للاداب تتوج هذه الآثار عام ١٩٢٩ قبل وفاته بحوالي ثلاثين عاما . وغدا توماس مان في عداد الكتاب الكلاسيكيين لا في المانيا وحدها، بل في العالم كله . ان روايات كالجبل السحري والمختار والدكتور فوستوس واعترافات فيليكس كرول وتريستان والموت في البندقية والرؤوس المعكوسة وثلاثيته الكبرى (يوسف واخوته) لآثار قوية صلبة لا يدركها البلى .

وسنحاول في دراستنا هذه لاحدى رواياته المشهورة (طونيو كروجر) ان نلم بالخصائص العامة التي تطبع ادبه وفنه .

كتب مان هذه الرواية وهو في مقتبل العمر ، واذا كان من شأن الكتاب ان يودعوا آثارهم الاولى حماسة الشباب وعنفوانه وحدهما ، فان هذه الرواية تحمل الى جانب ذلك ، البذور الاولى لادب توماس مان وفلسفته ونظرته الى الحياة والمشاكل التي عني بها طوال حياته .

يقدم لنا الكاتب في هذه الرواية صورة للاديب الذي يعيش في مجتمع بورجوازي وذلك في دراسته لبطل الرواية الذي يدعوه طونيو كروجر . والرواية تصور هذا الاديب منذ يفاعه حتى بلوغه الاربعين من العمر .

ما الذي يميز هذا الانسان عن سواه ، وما الخطوط الاولى التي تتضح من شخصية هذا الطالب الفتى ؟ الحق انه هو نفسه يشعر بغربة عن اقرانه ورفقائه . فهو لا يشاركهم ميولهم واهتماماتهم ، ولا يعمل مثلهم بجد وداب . انه ليشعر انهم منسجمون مع العالم منسجمون مع الآخرين ، اما هو فان شعورا بالغربة عنهم يضنيه واحساسا بالتفرد يحز في نفسه . لماذا لا يكون مثلهم ؟! ان النموذج السوي في راي طونيو هو صديقه هانس هانسن .انه ليتمتع بكل الصفات المادية والمعنوية التي يفتقر هو اليها . فهانس تلميذ مجد دؤوب ، يمارس الرياضة وركوب الخيل والسباحة كانه بطل يتمتع بحماسة كبيرة ويكن له معلموه المودة والمحبة ، ويسعى الرفقاء لاكتساب وده ، لا تشغله الا الامور الجدية الرصينة . اما طونيو فهو على عكسه تماما . انه انسان خيالي مستسلم دائما الى الاحلام يتأمل البحر في تقلباته المستمرة ، لم يستطع ان يبرز الا في دروس الادب والبلاغة .

ثمة ناحية اخرى تميزه عن رفقائه هي نظمه للشعر ، ولقد كان يجد في ذلك شيئا من الفضاضة ، فهل يليق بفتى مثله ينتمي الى الطبقة الراقية وابن للقنصل كروجر ان يقرض الشعر ؟ كان هو نفسه أول من يجد في هذا السلوك غرابة وشذوذا ؟! وكثيرا ما خاطب نفسه على النحو التالي : « لماذا اجد نفسي شاذا في خصام مع كل الناس ، في صراع مع اساتذتي كأنني غريب بين سائر الاولاد ؟ هلا نظرت الى التلاميذ اللامعين ، والى التلاميذ الذين يحافظون على ضعفهم الثابت ؟! انهم لا يرون المدرسين تافهين ولا ينظمون الشعر ، ولا يفكرون الا في اشياء يفكر فيها كل الناس ويمكن الجهر بها علنا . لا بد انهم يشعرون بالطمانينة والوفاق مع البشر ! ولا شك في ان هذا ممتع ... اما انا فاية علة في وكيف سينتهي ذلك كله ؟ »

كذلك كان كروجر يشعر بظمأ الى الحب والصداقة ، ولكن هذا الاختلاف القائم بينه وبين رفقائه كان يجعل الصداقة امرا صعبا وكان ذلك مصدر الم دائم له . كان يحب صديقه هانس هانسن ولكن صديقه هذا في شغل عنه ، ان له مشاغل اخرى واهتمامات شتى ، غير القراءة والحديث عن المطالعات الادبية . ولقد ادرك طونيو في سن مبكرة ان الذي يكون حبه اقوى هو الانسان الاضعف وان عليه ان يتعذب . وكان وهو في الرابعة عشرة من عمره ، قد تعلم من الحياة هذا الدرس اليسير القاسي . وكان من شانه ان يلحظ هذه الامور ويدون ملاحظاته عنها . وكان يجد فيها دروسا اكثر فائدة من الدروس التي يلقيها عليه الاساتذة والتي يرغمونه على استيعابها وحفظها ، وكان ينفق الساعات وهو يستنفد معاني هذه الامور ودلالتها .

والحديث عن الصداقة التي لم يحظ بها طونيو كروجر بسبب تكوينه الخاص وطبيعة المجتمع الذي يحيط به ، يقودنا الى الحديث عن اخفاقه في الحب . وحسبنا ان نلم الماما سريعا بالجو العام الذي تعرف فيه كروجر على فتاته انجبورغ هولم ، حتى نفهم سر هذا الاخفاق . هل من اليسير ان ينجح انسان حالم متفرد خجول في اكتساب مودة فتاة لعوب جميلة يحيط بها جمهور المعجبين والناس « الاسوياء » ؟

لقد تعرف بها ، وههنا تكمن المفارقة ، في منزل احدى سيدات الطبقة الراقية التي اعتادت ان تستضيف كل اسرة بدورها مجموعة الشبان والشابات حيث يحضر معلم خاص ليلقي عليهم دروسا في آداب السلوك والرقص .

وفي تلك الليلة ذاتها اكتشف طونيو انه مغرم بهذه الفتاة الجميلة ويصف توماس مان تفتح هذه العاطفة في نفس بطله باسلوب رومنطيقي عذب فيقول : « كيف حدث ذلك ؟ لقد رآها الف مرة ، ولكنه في احدى الامسيات الفاهــا مشرقة على نحو خاص ، لقد رآها من ناحية ما ترفع راسها الى الوراء ضاحكة على نحو خاص يقظ ، اذ كانت تحدث احدى صديقاتها ... لقد سمعها تنبس بكلمة موسيقية حارة على نحو خاص ، كانت الكلمة عادية ، ولكن سرورا قويا استحوذ على قلبه .. بل ان هذا السرور لاقوى جدا من السرور الذي كان يشعر به احيانا ، حين كان يتأمل في الايام الماضية هانس هانسن وهو فتى صغير .

في هذا المساء حمل في قلبه صورة عن الضفيرة السميكة الشقراء وعن العينين الواسعتين الزرقاوين الضاحكتين وعن الانتفاخ الصغير فوق الانف الذي لا تكاد تظهر فوقه بقع النمش ، لم يستطع طونيو ان يغفو لانه كان يسمع دائما رنة الصوت الخاصة ، وحاول ان يحاكي في لطف الطريقة التي نطقت بها بالكلمة العادية ، وارتجــف في الوقت نفسه ... ودلته التجربة ان ما يشعر به هو الحب ، ولكن بالرغم من انه كان يعلم علم اليقين ان الحب سيحمل اليه كثيرا من الالم والعذاب والشقاء ، وبانه سيحطم هــدوء نفسه وينعم قلبه بالانغام دون ان يجد الراحة الضرورية لكي يعطي لهذه الانغام شكلا دقيقا ، ويخلق في جو هــادىء اثرا فنيا كاملا ، فانه تقبله مع ذلك كله ، في فرح ، واستسلم له كليا وغذاه بكل قوى نفسه ، ذلك بانه يعلم ان الحب يجعل الكائن غنيا وحيا وكان يتمنى ان يكون غنيا وحيا ، ويؤثر ذلك على خلق اثر فني كامل في جو هادىء . »

ولكن كروجر الذي لا يعرف ان يتلاءم مع الجو المصطنع الغريب عنه، قد وجد نفسه موضع هزء الاخرين وسخريتهم، وها هوذا يخطىء في الرقص فيثير حوله موجة من الضحك ، ويجد نفسه مضطرا لان ينسحب الى قوقعته ، الى تأملاته وعالمه الداخلي ، وكآبته ، وتزداد الشقة اتساعا بينه وبين الآخرين . وليس امامه من بعد الا ان يحلم ويتخيل ، ويؤمل في ان تأتي اليه الفتاة تسري عنه وتزيل عنه المه . ولكن مثل هذه الامور لا تحدث على الارض .

« تسلل طونيو الى خارج الصالة فوصل الى الردهة سرا ، ثم ذهب ووقف ويداه خلف ظهره ، ووراء نافذة كانت خصاصها مسدلة دون ان يفكر انه يتعذر عليه ان يرى شيئا من خلالها ، وكان من السخف بالتالي ان يبقى امامها متظاهرا بانه ينظر الى الخارج ... بيد انه كان ينظر في اعماق نفسه ، في اعماق نفسه حيث الرغبات الاليمة والحزن الشديد . لماذا ؟ لماذا كان هنا ؟ لماذا لم يكن في غرفته ، قرب النافذة ، يقرأ وينظر بين الفينة والفينة الى الحديقة وقد سادها ظلام المساء ، حيث تصر شجرة الجوز القديمة صريرا قويا ، اذن لشعر هناك بانه مستقر في محله الملائم . يجمل بالاخرين ان يرقصوا من كل قلوبهم دون ان يخطئوا ... واضاف يقول : « يجب ان تأتي ! يجب ان تلاحظ انه لم يكن هناك ، وان تشعر بما يجول في نفسه ، يجب ان تتبعه دون ضجة وتضع يدها على كتفه وتقول له : « تعال ، ادخل معنا وابتهج ، انني احبك .. » وارهــق اذنه وانتظر في قلق احمق ان تأتي . ولكنها لم تأت قط . ان هذه الامور لا تحدث على الارض . »

ويدرك طونيو كروجر ان هذا ليس مجاله وان لا سبيل الى ان يتوفق فيه ، ان له مجالا آخر فسيحا هو مجال الفن ، واذا كان التوفيق قد اخطأه ههنا ، فان حياته الادبية تبشر بالازدهار ، الم تقبل احدى المجلات الادبية نشـر قصائده؟! لاشك في انه سيصبح شهيرا ذات يوم، وستكون له قيمة ادبية كبرى ، ولكن ما فائدة ذلك كله ؟ ان كروجر ليعلم علم اليقين ان هذا النجاح الادبي ــ اذا تحقق ــ لن تكون له اية قيمة في نظر هذه الفتاة ، فليست هذه الامور مما تهتم او تبالي بها . ان لكل منهما عالما خاصا به ، ولا سبيل قط الى تداخل هذين العالمين الغريبين ، عالم الحياة كما يفهمه صديقه هانس هانسن وفتاته انجبورغ هولم ، وعالمه هو ، عالم الفن والشعر والخيال .

وازاء ذلك كله لم يكن امامه الا ان يسير في الطريق التي كان عليه ان يسير فيها . ولكن ما هذه الطريق ؟ ذلك بانه بالنسبة لعدد من الافراد ليس هناك طريق حقيقي محدد ، واضح المعالم . غادر طونيو بلدته وراح يتنقل من بلدة الى اخرى . وفي رحلاته تلك استسلم لشتى المغامرات الحسية فعرف الخطيئة والالم ، كما عرف الظمأ العميق للنقاوة والطهارة . وقد البسه هذا التنقل غنى فكريا وشحذ خياله واحد بصيرته حتى اصبح يستطيع التغلغل الى اعماق نفسه ونفوس الاخرين ، والى الاشياء المستترة في الاعماق وراء التصرفات والاقوال . اما ما رآه هنالك،فكان التفاهة والبؤس،والبؤس والتفاهة، عندئذ جاء الالم وكبرياء المعرفة والعزلة ، لانه لم يكن في استطاعته ان يظل في مجتمع البشر الساذجين ذوي النفوس اللامبالية الغامضة ، وكان يحمل شارة على جبهته تبعث القلق في نفوس الناس .

وهو اثناء ذلك كله لم يكن يكف عن تعهد ادبه وفنه ، وكان يشعر ان الادب ليس رسالة بالنسبة اليه بل لعنة ، وكان شعوره باختلافه عن الاخرين ، عن الناس العاديين ، ما يفتأ يتسع ويعمق . وكان يؤثر الحياة ويحبها ولكنه كان يجد نفسه دائما في معزل عنها ، ذلك بانه لم يستطع قط ان يكون ابنا لطبقته يحمل قيمها ومفاهيمها ، كما لم يستطع ان يتخلص من اسرها او يثور عليها بل بقي معلقا بين هذا وذاك . وبهذا المعنى تقول له صديقته الفنانة (ليزافيتا ايوانونا) : « انك بورجوازي ، بوجوازي سلك طريقا خاطئا، انك لبرجوازي ضال . »

وفي الفصول الاخيرة من الرواية يعرض توماس مان ، استكمالا لصورة بطله ، وصفا لعودته الى بلدته التي كـان

يشعر بحنين دائم اليها . الا ان عودته الى بلدتــه لم تزد شعوره بالغربة الا قوة ، ولم تزد المه الا شــدة . فها هو يزور منزله ، المنزل الذي ولد وترعرع فيه ، حيث نظم قصائده وعزف على كمانه واحب الموسيقى ، وتأمل منــه الطبيعة وشجرة الجوز الهرمة . الا انه لم يكد يتعرف المنزل ، فلقد حُول الى مكتبة شعبية ، واذ امضى فيه بعض الوقت غادره الى الفندق ، وهنـــاك التقى ، مصادفة ، بمجموعة من الرجال والنساء جاؤوا في رحلة ليمضوا في المدينة يوم استجمام ممتعا . ولما حل المساء استسلم هؤلاء الى الغناء والرقص ، ووقف هو في ركن قصي من الصالة ينظر اليهم ، على عادته في الايام البعيدة تلـك . وما كان اشد دهشته حين راى بينهم صديقه القديم هانس هانسن وزوجته انجبورغ هولم ! ان موكب الناس السعداء يمر امامه دون ان يمسه ، ولكم تمنى ان يختلـط بهؤلاء الناس ويحادثهم ، وقال يحدث نفســه : « الا استطيع ان اقترب قليلا من هانس هانسن وانجبورغ هولم ؟ وان اوجه الى هذا او تلك بعض النكات التي تمر ببالي ، فقد يجيبان عنها بابتسامة على الاقل ؟ ان من شأن هــذا ان يجعلنــي سعيدا ، وفكر فيما يستطيع قوله ولكنه لم يجد الجراة ليقول شيئا ، لسوف يحدث ما كان يحدث دائما : فانهمــا لن يفهماه ، وسيصغيان اليه في دهشة . ذلك بان لغته لم تكن لغتهما .

ولعل في الحادثة التي جرت له مع رجال الامن قبيل مغادرته البلدة رمزا لوضعه كله . لقد ظنه رجال الامــن احد المحتالين ، واقبلوا يستجوبون ويدققون امره . أكانت له سحنة محتال غشاش ؟ لا واغلب الظن ان هذه الحادثة التي تعرض لها لتفصح عن نظرة المجتمع الذي يتحدث عنه توماس مان الى الاديب ورجل الفكر . واستطـــاع طونيو كروجر بعد لاي ان يتخلص من هذه الورطة وينأى عن بلدته وكل ما فيها من جمال وسعادة ليتابع حياة التشردوالتنقل وعدم الاستقرار . ولكنه ، لقاء ذلك ، كان على تصميم عظيم في ان يبدع آثارا ادبية رائعة ، وان كان في اعماقه يؤثر ان يحيا ويتمتع بالحياة على ان يبدع هذه الاثار .

في هذه الصورة الموجزة الحية التي رسمها توماس مان لبطل روايته طونيو كروجر ، نلمح في جــلاء الخطوط الرئيسية التي طبعت ادبه وللمشاكل الادبية والفكرية التي اعتملت في ذهنه خلال تطوره الادبي الطويل ، ولقد ظلت مشكلة انحطاط الطبقة البورجوازية الشغل الشاغل لهـذا الاديب الكبير . وليس من باب المصادفة ان يجعل توماس مان بطل روايته اديبـــا ، ما دام يتحــدث عن المجتمع البورجوازي ، ذلك بانه اراد ان يصور مجتمعه تصويـرا دقيقا ، ولقد تأمل الكاتب مصائر الاسر الكبيرة في مجتمعه ، فوجد تلاشي الاسر القوية ، وراى كيف تظهر اسر اخرى ليست جديرة دائما بنجاحها الباهر السريع ، وكان يعتقد ان الاسر الكبيرة تلك لا تتلاشى بأكملها : فقد يظهر منها ، احيانا ، هذا النتاج العجيب من التفتت الذي ندعوه فنانا اي انسانا لا يخضع لاي عمل معتــرف به ، مخلصا مــن طبقته ، همه التأمل والحلم ، وان الروائي والعالم النفسي ايضا هما في راي توماس مان نتاج طبقة بورجوازية في دور التفسخ ، بل ان فن الرواية نفسه وهو الفن المفضل لدى هذه الطبقة، كما كانت الملحمةفن الطبقة الارستقراطية البدائية لهو الظاهر المرضية والتشخيص معا لعدم الاستقرار الذي عاش فيه القرن التاسع عشــر كله . وفي صورة طونيو كروجر مصداق لذلك . فقد تحطمت الاسرة التي انحدر منها هذا البطل وتلاشت . فلقد توفي ابوه وتزوجت امه بعد قليل من فنان وسافرت معه ، ولم يبق من الاهــل جميعا احد ، واستحال المنزل الى مكتبة شعبية ولم يعد هناك غير طونيو كروجر وريث هذا الوضع والشاهد عليه والمتحمل وزره .

ونلمح في صورة طونيو كروجر كذلك ، صورة المؤلف نفســه ، لقد خلع المؤلف على بطله كثيرا من مشاعره ، وكان الجو الذي جعله يعيش فيه هو جو الكاتب نفســه . فلقــد توفي والد توماس مان في سن مبكرة فنشأ هذا يتيما كما نشأ طونيو كروجر .. وكانت امه برزيلية غريبة عن بلده ، كما كانت أم طونيو غريبة كذلك عن بلده . ولقد قضى توماس مان معظم طفولته في المنزل الهرم الذي نرى صورة دقيقة حية عنه في وصفه لمنزل طونيو كروجر بكل ما فيه ، مــن النيلوفرة وشجرة الجوز الهرمة والبحر الذي كان يتملى فيه احلام الصيف ايام العطلة .

وفي تشاؤم طونيو كروجر الذي اكتشف ان الحيـــاة ليست الا تفاهة وشقاء ــ وشقاء وتفاهة ، نلمس تشـاؤم توماس مان نفسه ، ذلك بانه تأثر بشوبنهور ونيتشه اعمق التأثر وكان لهما دور كبير جــدا في تكوينه الفكــري والثقافي . فلقد تبنى فاسفة متشائمة ترى ان الحيـــاة رهيبة وان العالم سيء وتتغنى بالموت وبسحر العــدم . كما أن حب توماس مان للموسيقى نتيجة تأثــره واعجابه بالموسيقار الكبير واغنر قد جعل معظم رواياته تعنى بالموسيقى والموسيقيين ، ولهذا السبب نفسه فقد صدر بطل روايته انسانا محبا للموسيقى متذوقا لها . يعزف على الكمان ، ويعيش في جو مشبع بالموسيقى لان امه كانت هي الاخرى تحب الموسيقا وتجيد العزف على البيانو .

وفي هذه الرواية نلمح ميزة اساسية اخرى لادب توماس مان واعني بها اهتمام ابطاله بالقضايا الفكرية والاجتماعية والفنية ، ومناقشتهم لها . ان معظم ابطاله اناس يفكرون ويطيلون التفكير في شتى المشاكل التي تطــرح امامهــم ، وتمتلىء كل روايات مان بهذه الحوارات الطويلة العميقة . التي تدور بين الابطال وتمس اعمق المشاكل الانســانيــة والفكريـــة .

والعناية الكبرى بالشكل والاسلوب والاداء الفني التي نلحظها عند طونيو كروجر هي عناية توماس مان نفسها

أمـي

امـي ومـا اعذبهـا لفظـة   ترف كالهمس .. على مسمعي
تسكرني تخلـق في خـاطري   الف صباح .. بالسنى .. مترع
تزرع روحي في مروج الرؤى   وبين اكـداس الشذى الاضوع
احسها – ان خطـرت – انني   في عالم .. ما حده .. ؟ لا اعي!
تفلت فيه الروح من سجنهـا   ويفلت القلب مـن الاضلـع
فيغرقـاني في بحـار السنى   وينسيـاني .. ابحر الادمـع
ويسكبان الحب حولي فمـا   للحقد في نفسي مـن موضع
فكل ما فيهـا هـوى ان همى   – يومـا على جدب المنى .. يمرع
حسبي اذا جف الهـوى كـوة   اشرب مـن نميرهـا المتـع
امي ولـولاك لمـا زف فـي   عيـوني النور ... ولم يسطع
لولاك ما موسق دربي الهـوى   لولاك زهـو النـور لـم اكرع
انت اذا مـا جـن في الاسى   وحمـت الالام فـي مخـدعي
وافلتـت مـني الاماني .. ولم   يعد سوى حزني وهمي معي –
فجر رهيف النور .. حلو السنى   في خاطر الايام .. لم يلمـع
امي .. ويـا انشودة رفرفت   حولي .. وقد اغفت على مضجعي
كم ليلـة هـدهدني لحنهـا   فحرت بالابداع .. والمبـدع
وكلمـا الشادي وهى عـوده   اهبت بالاوتـار ان رجـعي
فيزهـر الدفء وتنهـل بـي   النعمى .. وتكسو صفرة البلـقع
وفوق جنح اللحن انأى انا ..   أضيق بالزمـان .. والموضع
امي .. وفي عينيك اطلالـة   تضري لهيب الشوق في اضلعي
اكاد من خلف الصحارى .. أرى   وجهـك عذبا ساحـر المطلـع
وجها .. كوجه الله .. مثل الضحى   ان ارن فـي بهائـه اخشـع
اماه .. لا ابعدك الله عـن   قلبي .. فقلبي الطفل لم يشبع

بغداد   **محمد حسن الامين**

بالشكل حتى لتغدو كتاباته ضربا من الكتابة الكلاسيكية الرائعة في دقة بنيانها وروعة اسلوبها . ومرد هذه العناية لا الى هروب الفنان من المشكلات التي تجابهه ، بل انها تعتمد في الدرجة الاولى على شعور اخلاقي يحدو بالفنان نحو طلب الكمال في الكتابة والدقة في التعبير عن افكاره. ان الكتابة لدى توماس مان ، كما يعكسها ابطاله وكتاباته نفسها ، هي التزام خلقي قبل كل شيء .

هذه الامور جميعا لا تقتصر على رواية واحدة من روايات توماس مان بل تكاد تطبعها كلها بطابعها . وان نظرة خاطفة نلقيها على رواياته لتوضح لنا ذلك . فأبطال توماس مان الشبان كلهم يعشقـون الموسيقـى والادب ويشعرون ، نتيجة لذلك ، بضيق البيئة التي ينمون فيها ، فهم لذلك يأملون في الخروج منها والهرب . ولكنهم جميعا يشعرون بحنين دائم الى بيئتهم . وان هذه النفوس الفتية كلها لتمتاز بأنها نفوس معقدة يضنيها قلق ميتافيزيقي ، بينا نرى ان المجتمع يفرض عليها العزلة والوحدة . ان هناك هوة تفصل بين هذه النفوس وبين الاناس العاديين ، السعيدين بالحياة ، ولكن حنينا كثيفا يدفع بهم الى ان يشاركوا الناس افراحهم واعيادهم . ومن هنا كان تشاؤمهم وبرمهم بالحياة . ذلك بأن الهم الكبير ليس نتيجة خطيئة فردية بل مرده الى البنيان العام للوضع البشري .

تلك هي النظرة العامة للحياة والادب التي يطالعنا بها ادب توماس مان كما تجلى في رواياته المختلفة : الموت في البندقية وتريستان والبودنبروك والجبل السحري . وان رواية طونيو كروجر لتشكل مدخلا ممتازا لفهم هذه الاثار ومعرفة العالم الفكري والادبي الذي خلقه توماس مان .

حلب   **جورج سالم**

الــى عينيهـا

●

عينــاك ليلــي المخملــي وتولهي ... وتأملــي
نجمــان ... يخبو فيهما الــلألأ دون تغــزلــي
طفــلان ... ينكسران يعتــلان دون تدلــل
ويهدهــدان ويرضعان عبــادتــي وتبتلــي !

***

السحــر والاغــراء فــي الهــدب الطويــل المسبل
وغــوى الدلال الانثوي بشعــرك المتهــدل
والغلمــة الشهــوى بذاك البرعم المتملمــل ...
اشياء تلهبنــــي ... تثير صبابتي وتعللــي !

***

انــا قبــل عينيــك وهمس كالتلهــف مثمــل
قد كنــت في روض الهــوى كفراشــه المتنقــل
حتى طلعــت علي من صدف الزمــان المقفــل
فــي لحظــة مــن غفــوة الدنيــا على متأمــل
فمــلأت يــا فينوس ايامــي بحــب اول
وتركتني فــي لهفــة ولهــى ووجــد مذهــل
تشتاق نفســي خلــوة تقضى بضفــة جــدول
او وقفــة مــا بيــن ورال التــلال المشعــل
والشمس تزلــق فــي المغيــب بريبة وتسلل !
قــد كان شعرك غــابة الطيب ... حزمة سنبل
فقطعتــه وحرمتنــي غنــج الحريــر المرسل
وجنــاح لــين كان في لفــح الهجيــر مظللــي !

***

فينــوس ان زمــاننــا مــا كــان بالمتمهــل !
فــدعي الهــواجس والتعقــد وامرحــي وتهللــي
وتمتعــي قبــل الخريف وقبــل غــض الانمل
انــا لســت يــا معبودتــي بالملحــف المتوســل
فرجولتــي لا ترتضــي في الحــب طيف تذلــل
انــا لســت اشرك ان بخلت بلاهب متغلــل
ساحبــه ان يعطنــي واحبــه ان يبخــل
حبــي لــه حب الفــراشــة للربيــع المقبــل
حب سيبقى ما حييت تولهــا فــي مقولي !

فؤاد الخشن



محمد رجب البيومي

مؤامرة في القصر الملكي بالحيرة

بقلم محمد رجب البيومي

جلس الاسود بن المنذر مع صديقه عدى بن مرينا فقال له : ارايت كيف عجل النعمان بزفاف هند الى عدى بن زيد دون ان يقيم من المظاهر والاحفال ما تعود عليه ملوك آل المنذر ابن ماء السماء !

فقال عدى : لو امر هذا الرجل اخاك ان يشنق ابنته لا ان يزوجها له فقط ، لفعل في ارتياح البس هو الشاعر الماكر الذي غشك واحتال عليك امام كسرى ليمهد الامر للنعمان !!

فصعد الاسود زفرة حبيسة كانت تعتلج في صدره ثم قال : لقد فكرت كثيرا في تفضيل عدى بن زيد اخى علي فما رايت وجها مقبولا لما كان !

فامتعض عدى بن مرينا امتعاضا تشوبه الكراهية والغيظ ثم قال لئن فاتك الملك ايها الصديق فلن تفوتك المكيدة لمن سلبك اياه !

فاطرق الاسود يقول : ومن انا حتى انال من انسان يحميه كسرى ويرعاه ، فرد عدي متسرعا: لئن وكلت الي هذا الامر ، لآخذن بثأرك من عدوك عن طريق النعمان ، على ان تأذن لي في صداقة اخيك صداقة مفتعلة تعلن الود وتبطن الشنآن !!

فنظر الاسود نظرة فاحصة في وجه عدي وقال : النعمان ضب ثعلبان ، ولن يخدعه خادع من بني الانسان!

قال عدى في ثقة لن اخدعه وحدي ، ولكن المال الكثير سيعمي عينيه فيضل الصوا ب!

فرد الاسود في تحفظ : اوضحت لك رايي ، فاذا ما رايت سواه فاصنع ما تشاء !!! وشهد الخورنق ، بعد هذه المحادثة القصيرة عدي بن مرينا يغدو ويروح اليه كل يوم حاملا هداياه ونفائسه ، وان ثراءه العريض وتشجيع الاسود له بالفضة والذهب لما يساعده على الاكثار والافضال ، حتى تعجب النعمان عجبا دفعه الى ان يسأله ماذا يدفعك الى هذا الفيض الجياش ؟

فقال عدى في انكسار : عرفت ان مولاي يظنني من رجال اخيه الاسود ، وقد كان ذلك قبل ان يتبوأ ملك الحيرة ويصبح سيد الناس ، فلما انتهى اليه الامر عن كفاءة واستحقاق قدمت نفسي اليه لاكون رهن اشارته كما يشاء !!

فقال النعمان وقد بهره بريق الذهب اني لاعرف لك مكانك المرموق في الحيرة ، وكلمتك مستجابة في الخورنق من الان ، ومثلي محتاج في مملكته الى رجل بطل ، له مثل عقلك الحصيف ورايك الشجاع !

.... وهكذا اخذ عدى بن مرينا مكانته في القصر ، واستطاع في مدى قصير ان يصادق ذوي الشأن فيه من حاشية النعمان وندمائه وحجابه ومستشاريه ، بل انه استطاع ان يسيطر عليهم بتأثيره النفاذ ، وان يدرس مشاربهم المتباينة ومنازعهم المختلفة ليرضي كل شخص بما يروقه من الاقوال والاعمال ، ولم يكتف بذلك بل تمكن من السيطرة على آرائهم . يصرفها بتوجيهه ومشيئته وفق ما يؤثر ويميل ، واصبح يشير بالراي من بعيد فيكون موضع التاييد والتحبيذ ، ويتقبله النعمان بيسر وانشراح، لا على انه راى عدي بن مرينا بل على انه اجماع الحاشية ، ومنحى الخلصاء والندماء !! وحين انس من نفسه المقدرة على كل ذلك اخذ يتعرض لعدى بن زيد من بعيد ، فيطري ويمدح ثم ينقد في سهولة ورفق حتى اذا هيأ الاذهان الى تقبل النقد ، اخذ يمعن فيه على حذر ويضيف الطارف الى التليد ويثير بما يختلق غبارا كريها اخذ ينتشر ويشيع حتى اوشك ان يتلبد به الافق ، وكل ذلك مقدمة مطمئنة ثابتة الى ما يتوقعه الحاقد الشانىء من انقلاب ! ولم يكن عدى بن مرينا يسير وحده في طريق الوقيعة والدس لعدى بن زيد بالخورنق ، بل كانت المتجردة الحسناء تشاركه البغض الكريه ، والنفوذ الشانىء والحقد اللاهب ! لقد اصبحت المتجردة زوجة للنعمان ورثها عن ابيه المنذر ، فساءها ان تنتقل من شيخ عجوز الى رجل شانئه دميم ! ولقد كانت تأمل ان تصير زوجة للاسود ، هذا الفارس العملاق البهيج ، ففاجاها الدهر بما واد املها الطامح واضاف الى ليلها الاليل ظلاما لا ينبىء عن فجر ، او ينبثق عن ضياء !!

لقد خضعت مرغمة للنعمان ! وارادت ان ترفه عن نفسها بمعابثة المنخل اليشكري احد شعراء القصر من ذوي الشباب القوي والصباحة المثيرة ، والمظهر الانيق ، فرات

هند بنت النعمان تأخذ عليها السبيل وترصد حركاتها متتبعة حريصة ، وفي عينيها اتهام صامت بالجريمة حتى اسود في عينيها الخورنق وباتت من النعمان وابنته المتيقظة في هم مرير واسى لا يريم !! فلما زفت هند الى عدى خلا لها الجو في الخورنق بعض الشيء ، ولكنها لم تنس كراهيتها العميقة لهذه الشابة المتيقظة ، بل ان كراهيتها العمياء قد امتدت الى زوجها عدى بن زيد فأخذت تفكر في اصطفائه هند ، وانتقالها معه الى الايوان الكسروي بالمدائن لترى من البهجة والمسرة هناك ما يتضاءل جواره الخورنق ، مهما حفل بالمباهج وطفح بالنعيم ! انها لتخلو الى المنخل خلسة في بعض جلساتها المختطفة ذات الحيطة والانتهاز ، فتحدثه عن هند وعن عدى وتشبعهما ذما وسبابا ، فيصرح لها المنخل انه لا يبغض احدا في الدنيا قدر ما يبغض هذا الشاعر المتغطرس المغرور ! ، لقد حطم كبرياءه الادبية حين وفد على الخورنق في زيارته الاخيرة ، وطلب لقاء النابغة وزياد بن ظبيان رافضا رؤية المنخل ، وكأنه بشعره الرائق وادبه الرائع لا يستحق ان يجلس اليه عدي فيسمع اليه ويسمعه كما اختص النابغة وزياد بن ظبيان ! ثم يعض المنخل على شفتيه وهو يقول لقد كان اهمالي هذا طعنة ادبية قدمها عدى الي حين افهم النعمان اني لست من الاكفاء المعرقين ، وقد عرفت الاحتقار في نفس النعمان وعينه منذ هذا اليوم الاسود ، فهو لا يعبأ كثيرا بما انشده ، وانه ليقبل على النابغة اقبال المحتفل المعتز ، ويأكل معه في صحاف الذهب ، ويجلس الى جواره فوق اريكة الملك ، ويرى الوافدون من بطون القبائل هذه المنزلة العالية له فيخصونه بشفاعتهم ، ويسألونني عنه اذا غاب لبعض الشيء ، وكأنني تابع ذليل يعرف اماكن غيابه واوقات حضوره دون أن اكون نظيره المماثل ، وقريعه الاصيل ، لقد جرح عزتي عدى ، ولن انسى ذلك مهما امتدت بي الحياة ..!

كان ذلك كله يدور في النفوس همسا لا يصل الى الاعلان فعدى بن مرينا والمتجردة والمنخل يلتمسون السبل الى تكدير العلائق بين الملك وصهره الجديد ، والنعمان في اعتزازه بملكه لا يخطر على باله هاجس ضئيل يومي له ببعض ما تمور به النفوس من احن ، وما تشتعل به القلوب من احقاد ، بل انه على النقيض من ذلك قد استشعر راحة هنيئة في مصاهرة عدى ، وعلم ان مكانته في الايوان قد رسخت رسوخا لا تزعزعه احدى العواصف النازلات ، وقد غمره المعتز فمضى ينكل بخصومه من رجال الحيرة وشيوخ القبائل في البوادي غير عابىء بشكاياتهم الى البلاط الفارسي ، ومتخذا من عدى درعا فولاذيا يرد عنه الغوائل حين تهم بالانقضاض وزاد شر الملك واستفحل ، حتى اشار عليه حاجبه الباسل عصام بن شهيد ان ينهنه بعض الشيء من غلوائه كيلا يفاجأ بثورة كثورة الناس على ابيه ، فهز راسه غير عابىء وهو يقول ابن عقلك يا عصام ! لم يكن لابي صهر في بلاط الايوان !! فكان ما كان ! واغضى عصام على غيظ متخوفا من عاقبة هذا النزق المجنون !

على ان المنخل قد استطاع باستشفافه البارع ان يدرك سريرة عدى بن مرينا نحو عدى ابن زيد ، فتزلف اليه بما ادناه من قلبه ، واصبح الشاعر رفيق غدوته وروحته خارج الخورنق ونديمه الملتصق به داخل القصر اذا غاب النعمان، فاذا حضر لم يكن لم بد من تباعده كيلا يجاوز قدره فيسامر الملك مع الندماء ! وقد تكاشف الرجلان بما يكتمان ، وعرف عدى عن طريق المنخل ان المتجردة تشاركهما هذه الكراهية العمياء ، وترقبا على يدها بعض ما يرجوان من نجاح ، وقد كان حدسهما صادقا فيما يترقبانه ، فان هذه الحسناء الماكرة التي تدله الملك في حبها اذاب قوته بازائها وجعله وهو الطاغية المريد طفلا امامها تأمره عيناها الساحرتان فيصنع ما تشاء !

هذه الحسناء الماكرة العابثة اخذت تزعزع معاقل ثقته في عدى شيئا فشيئا بما تسوقه اليه من احاديث ، وقد فضح النعمان نفسه امامها حين اعترف لها في بعض خلواته الصافية بما قدم له عدى من صنيع لا ينساه حين اوصاه بشيء وأوصى اخوته بنقيضه ليفوز بالتاج في سباق الامراء،ثم زاد فحدثها بما خدع به النعمان صاحبه من ميله الى النصرانية ، ليجذب اليه عنايته وتأييده ولم يدر ان ذلك كله سيصل عن طريقها الى المنخل وهو بدوره سيبلغه عدى بن مرينا فيصبح شكه يقينا جازما فيما ارتكب عدى بن زيد نحو الاسود من غش وخداع !!! وفي ضوء ذلك كله تمضي العصبة الحاقدة في طريق الوقيعة مساندة حلفاءها المتربصين !!

وارتفع الضحى ذات نهار بالحيرة فبدا الخورنق في لألائه مكتسيا بحلة ساطعة من الضياء ! وقد جلس النعمان مع حاشيته في احدى شرفاته العالية وفوق مظلات الديباج ترد عنه وهج الضياء ، وعينه تمتد الى السرير وقد جرى ماؤه متكسرا امام الخورنق ترف عليه ظلال الصفصاف فتطرز جانبيه بنسيج اخضر رفاف متموج اما اواسطه فقد احالتها الشمس مرايا صافية من النور ، ولم يكن النعمان ممن يتذوقون جمال الطبيعة في الضحى ولكنه نزل على رغبة حاشيته في اختيار الشرفة العالية نزلا مريحا يمتع العين ويضيء النفس ، وقد تقدم اليه حاجبه عصام بن شهيد في ادب يعلن وصول رسالة من صهره عدى بن زيد ، فأمر الملك بقراءتها بالمجلس ، فتلكأ عصام كمن يرجو ان يرجئها الملك حتى يسمعها على انفراد ، وتظاهر المجتمعون بالرغبة في الانسحاب ، ولكن النعمان صاح بعصام ، اقرأ ما لديك فليس معنا من نكتم عنه رسائل عدى او مطالب الايوان ، فمضى الحاجب يقرأ في اذعان

« من عدى بن زيد الى صهره النعمان

ابيت اللعن ايها الملك ، لقد حضر الى الايوان اياس بن قبيصة الطائي يشكو ما فعلت بقومه من السفك والتخريب

ذون مبرر ، كأني بك وقد جعلت ممن لديك من اساورة فارس اعوانا على ظلم الناس وازهاق الارواح ، ولئن علم كسرى بما تصنعه ليأمرن بما تخشاه ، فانته عن سبيلك تأمن عاقبة ابن هند وقابوس الاول والمنذر ابيك ، وقد محضتك النصح قبل الندم ولك عين تبصر وعقل يعي واذنان تسمعان »

فدهش النعمان دهشة الجمته ، وتطلع الى من حوله فأدرك انه تسرع حين امر بقراءة الخطاب علانية دون كتمان وعلته كآبة يمازجها الغيظ والحنق والغضب الثائر ، ثم نهض فجأة الى غرفة السر واصطحب معه عدى بن مرينا واخذا يتحدثان .

قال النعمان في غيظ ان عدياً يخاطبني وكأنني تابع له لا لكسرى ، فقال عدى في دهاء : هو صهرك القريب ، وليس لي ان ادخل بينكما ابيت اللعن !

فقال النعمان : سأكتب له ردا قاسيا كيلا يتمادى في تطاوله دون انتهاء !

فنظر عدى كمن يهم بالحديث ثم اطرق الى الارض فجأة دون كلام ، فصاح النعمان ويلك لم لم ترد علي ؟

فنظر ابن مرينا كمن يتحرز من الحديث ثم قال في تلعثم مقصود !! ابيت اللعن ان عدى بن زيد ذو حيلة ودهاء ولئن قسوت عليه في خطابك ليحتالن لدى كسرى بما يجلب الوبال !

فقال النعمان اعرف تماما انه ذو حيلة ودهاء ! ولكنه جرحني هكذا امام الناس !!

فانتهزها ابن مرينا فرصة مواتية وقال : اغفر له هذه يا مولاي ، على الا تأمنه منذ اليوم ، مهما شدت بينكما المصاهرة اقوى العقود !

فسكت النعمان ، ثم ترك مجلسه ، وهرع الى غرفة استراحته بالخورنق ، واستدعى المتجردة ، فرأت دلائل الغضب في وجهه فبادرته تسأل في دلال : ماذا يشغلك ابيت اللعن ؟ فارتبك الملك قليلا ثم قال : جاءني خطاب من عدى يأمرني وينهاني كأنني احد رعاياه ، فابتسمت المتجردة في تخابث وقالت : وهو يعلم يقينا انك احد رعاياه فنهض النعمان غاضبا من مكانه وهو يصيح ويلك ماذا تقولين ؟

فنظرت اليه زوجته بعينين ماكرتين وقالت في سخرية سأسكت ولا اتكلم !! ويلي ، كنت كاتمة رايي فما الذي انطقني الان !!

فتعجل الملك يقول ماذا تكتمين عني ايتها المراة ! وهل بين الزوج والزوجة تستر وكتمان !!

فاسرعت المتجردة تصيح في حماسة مصطنعة !! اكنت ابلغك ما اسمع لتنام على شوك القتاد !!

فضرب الملك كفا بكف وقال انام على شوك القتاد ! عجبا ! ماذا لديك من الانباء !!

فانطلقت الماكرة تتحدث

كل الناس يقولون انك تابع لعدي لا لكسرى ، وقد اخطأت كثيرا حين عجلت بزفاف ابنتك اليه دون امهال ، فلم تقم الاعراس التي يقيمها آل المنذر في العرب ويدعون اليها الوجوه والاعيان ، بل امرك فبادرت بالامتثال وسار بها كما يسير بأسيرة اخيذة لا بابنة ملك ذي جاه وسلطان !!

فعض النعمان على شفتيه ونظر الى المتجردة يسأل ثم ماذا ؟ فقالت متابعة : وكل الناس يقولون انه صاحب حيلة ، قد خدع الاسود فغشه النصيحة لا ليكرمك ويعليك بل ليتحكم فيك فهو يعرف ان الاسود اخاك مرهوب مهيب لن يستطيع ان يأمره وينهاه اذا ملك السلطان ، اما انت فستصير طوع امره حيث اختارك واصطفاك !! وقد تحققت فراسته فيك — للتجربة الاولى من امره — فقدمت له ابنتك باشارة واحدة ، وكنت من الفرحة المنتشية كأنك صرت كسرى العظيم صاحب الايوان !!

فاشتعل الغيظ في صدر الملك ، ثم اسند جبهته الى يده كمن دار الصداع برأسه فخارت قواه ، وانكفأ الى فراشه متمنيا ان يسعفه الرقاد ، وقد لباه بعد تباطؤ وامتناع !

.... اخذ شعور النعمان نحو صهره يتكدر قليلا قليلا بما يسمع من التعريض المرير ولقد لحظ عدى بن مرينا بوادر هذه الكدر تلوح في صفاء المحبة كما يلوح الغيم على مسارب الضوء ، فأخذ يمهد الاسباب لما يشعل النار في الهشيم ، وكان اخا بصر ثاقب يتقدم في طريقه على ارض صلبة دون ان يفضحه تعجل وانتهاز ، فهو يأخذ مأخذ المعتذر عن عدى ابن زيد في ظاهر الامر ولكنه في مطاويه الدفينة يشينه ويسلبه كل محمدة تظن ، وقد جد من الحوادث ما مهد له السبيل !

الفيوم — محمد رجب البيومي



عيسى العيسى

عيسى العيسى

بقلم البدوي الملثم

ولد المرحوم عيسى داود العيسى في يافا عام ١٨٧٨ ودرس في كلية الفرير بثغر يافا فمدرسة كفتين الارثوذكسية (بلبنان الشمالي) ومن اساتذته فيها المؤرخ الموسوعي الاديب المرحوم عيسى اسكندر المعلوف .

وواصل المترجم له دراسته العليا في الجامعة الاميركية ببيروت ، وكان يجيد اربع لغات حية هي: العربية والتركية والانكليزية والفرنسية ، واشتهر بين لداته بالفطنة والذكاء وسرعة الخاطر ، وفي صدر شبابه شغل طائفة من الوظائف في العهد التركي بفلسطين ومصر .

وفي عام ١٩١١ انشأ جريدة « فلسطين » في يافا بمشاركة ابن عمه يوسف العيسى ، وكانت هذه الصحيفة القومية اول من نبه الافكار في فلسطين والعالم العربي الى اخطار الصهيونية ، وظلت في كفاحها هذا حتى الحرب العالمية الاولى ، اذ احتجبت ونفي صاحباها (العيسويان) لمواقفهما القومية المشرفة من الطغيان التركي ، فيوسف أخذ الى دمشق ، وعيسى ارسل الى قونيه بالاناضول ، وفيها لاقى الاهوال ، وواجه المصاعب حتى انتهاء تلك المجزرة العالمية .

في العهد الفيصلي

وبعد أن دخل الجيش العربي دمشق ، وعلى رأسه الامير فيصل بن الحسين (الملك فيصل الاول فيما بعد) وطهر سورية ولبنان من فلول الجيش التركي أصدر يوسف العيسى جريدة قومية باسم (الف باء) وتميز فيها بزاوية اسماها (مباءة نحل) وعاد عيسى العيسى الى دمشق تلبية لنداء الواجب ، فاختاره المغفور له الامير فيصل بن الحسين سكرتيرا خاصا به فرئيسا للديوان الملكي ، وظل يشغل منصبه هذا حتى دخول الفرنسيين ربوع سورية .

وبعد أن تقاص الحكم العربي ، واستباح العلج الحمى ، عاد عيسى الى يافا ، مسقط رأسه ، ليستأنف جهاده الصحفي ، وأعاد اصدار « فلسطين » وجعلها مسرحا للاقلام الحرة ، وناهض الانتداب البريطاني الرامي الى تهديد فلسطين مناهضة افضت الى تعطيل جريدته مرات، وفرض الغرامات الباهظة عليها حدا من نشاطها ، وخنقا اصوتها ، لكن صاحبها ظل يقاوم الانتداب الجائر والصهيونية الباغية في بسالة وضراوة ، وصمد لكل عسف ، وتحدى كل باطل !

ولم ينس عيسى العيسى ، وهو العربي الحر ، طغمات الرهابين اليونانيين في الكرسي الاورشليمي لاغتصابهم هذا الكرسي الروحي من العرب اصحاب البلاد الاصليين، فحارب طغيانهم مع نفر من اخوانه القوميين ، ودعا الى تحرير الطائفة العربية الارثوذكسية من النير اليوناني ، بوصفها جزءا من الامة العربية ، وايصال هذه الطائفة الى حقوقها الشرعية المهضومة .

وتراس الفقيد عدة مؤتمرات ارثوذكسية عربية عقدت في فلسطين وشرقي الاردن ، وكان عضوا مؤسسا وبارزا في « حزب الدفاع الوطني » بفلسطين ، وعضوا في مجلس ادارة « بنك الامة العربية » للخبرة التي يتمتع بها في مجالي المال والاقتصاد ، فضلا عن مساهمته في طائفة من الجمعيات الخيرية الاسلامية والمسيحية .

واسهم الفقيد عيسى العيسى في الحركة السياسية بفلسطين ودعا الى اقامة (المعرض العربي الاول) الذي اقيم في القدس عام ١٩٣٣ وعين مديرا له ، وكان الغرض من اقامته مقاومة الاقتصاد الصهيوني ونشر الدعوة للسلع التي تنتجها فلسطين وشقيقاتها العربيات .

واستمر « ابو رجاء » على نشاطه وكفاحه في الحقل السياسي ، حتى حملته ظروف قاهرة على مبارحة يافا في عام ١٩٣٨ الى بيروت وفي ٢٩ حزيران ١٩٥٠ توفاه الله في عاصمة لبنان ، تاركا للادب العربي المعاصر ثروة ادبية هي ديوان شعر في السياسة والوجدانيات، ومذكرات قيمة في الحركة العربية والمراحل التي مرت بها .

من شعره الاجتماعي

في عام ١٩١٣ زار المؤرخ العربي المرحوم جرجي زيدان منشىء مجلة « الهلال » فلسطين ، وفي القدس اقيمت على شرفه حفلة كبرى خطب فيها نفر من اهل القلم والفضل كان المرحوم عيسى العيسى في عدادهم ، ومما

انشد في تلك الحفلة قوله مخاطبا (زيدان) :

خدمتَ البيانَ ، خدمت الادب ... فنلت بذلك اسمى الرتبْ
واضحى « هلالك » في المشرقين ... ينير الظلام ويجلو الريب
نهجت به منهجا للهدى ... جعلت البعيد قريب السبب
واحييت تاريخ مجد عفى ... واعليت شأن لسان العرب
لئن اكرموك بمصر فذلك ... فرض على كل قطر وَجب!

وكتب تحت رسم له :

شفّني السقم من سهاد وشوق ... وبراني النوى فصرتُ خيالا
فاسرت الخيال هذا ليبقى ... نصبَ عينيك للوفاء مثالا

وقال من قصيدة يرثي بها صديقه المرحوم عبدالرؤوف البيطار احد زعماء يافا :

وهل حكم الله في ان يكون ... خيار الرجال قصار الاجل ؟
اذن لا اعتراض على حكمه ... وسبحان ربك عز وجل !
ولكن مصابا بعبد الرؤو ... ف مصاب البلاد وخطب جلل
فقد كان واحدها في الخطو ... ب ومن ترتجيه اذا الشر حلّ
ألست تراها مشت خلفه ... مروعة سهلها والجبل ؟
وسل « يافا » تخبرك ان الذي ... حمى ثغرها كان ذاك البطل

من شعره القومي

وبعد وقوع المأساة والنكبة ، وتشتت الاهل والاحباء ، قال الفقيد بلهجة اليائس المحزون ، والهم جاثم بكلاكله على صدره :

يا ملوك الاعراب بالله رفقا ... وكفاكم تخاذلا واحترابا
قد عقدنا الآمال يوما عليكم ... فاذا كل ما رجوناه خابا
واذا غيمكم سحابة صيف ... واذا ماؤكم تبدى سرابا
قد أبحتم بلادنا للاعادي ... ثم اطلقتم علينا « كلابا » (١)
نصفنا مات والبقية تتلو ... بعد أن اوشكت تسف الترابا
حاربوا أو فصالحوا أو دعونا ... فنصفّي مع اليهود الحسابا !

من شعره الغزلي

لقي الفقيد حسناء في « بيت مري » بلبنان فصور ذلك اللقاء المستحب بقوله :

قالت: كبرتَ فقلت: الا في الهوى ... قالت : كفاك ، فقلت : لمّا أكتف
لا تنظري شيئاً ألمّ بمفرقي ... فالنار تحت رمادها لا تنطفي !
جودي علي بنفحة أو خلوة ... من عهدنا الماضي فيظهر ما خفي!

ومن غزله الرقيق قال يذكر « واقعة حال » :

عرف الحسان بانني ... منذ الصبا كلف بهنّه
وبانني في كل مجتمع ... اشيد بذكرهنه
وبانني ما زلت أسعى ... كي افوز بقربهنه
ويلذ لي دون الجميع ... سماع حلو حديثهنه

ومن الطرائف انني ... امس اجتمعت ببعضهنه
فأحطنني في هالة ... حتى غدوت اسيرهنه
وسألنني عمن أميل ... لحسنها من بينهنه
ولججن في طلب الجواب ... فحرت ثم اجبتهنه :
ان الجمال وسحره ... لم يجتمع الا بكنه
فلكل واحدة محاسن ... ما احتواها غيركنه
وأردت لي من بعد هذا ... مخرجا من سجنهنه
فعلمت من تقطيبهن ... بانني لم أرضهنه

ولذاك ضيقن الخناق ... فذبت من انفاسهنه
قلت الحقيقة انني ... أخشى بها من جرحكنه
ان التي استهوت فؤا ... دي دون اثم أو مظنه
سمراء حمراء الخدود ... وشعرها حَلَكُ الدجنه
وقوامها كالخيزران ... رشاقة يبدو لكنه
وعيونها السوداء تفعل ... في الحشى فعل الاسنه
في كل لفظ من بديع ... بيانها نغم ورنه
يشجي سماع حديثها ... وينم عن ادب وفطنه
وقد اكتست سود الثيا ... ب فزادها الملبوس فتنه
تلك التي ملكت علي ... مشاعري من بينكنه

ما كدت أصمت برهة ... حتى تفرق جمعهنه
ورأيتها فاذا بها ... ترنو باشفاق لهنه
وقرأت في الحاظها ... شكرا على عبثي بهنه
ثم انثنت نحوي تقول : ... احذر اذن من كيدهنه !

عمان ... البدوي الملثم

(١) اشارة الى لجنة « كلاب » المعروفة .

الشموع الخمس

تروعني في طرف ذاك البنان
ياقوتة تلمع
كانما خمس شموع حسان
في ظلمتي تسطع
وانما كل معاني الحنان
من كفها تنبع

مناي ان دب اليها الملال
حنت الى لمستك
روحي متى تقسو عليها الليال
ترتاح في راحتك
وما دهاني من هموم ثقال
ألقيه في ساحتك

أنامل فيهن سر لطيف
خاف وراء الحجب
رؤى واطياف ونور مطيف
بعاليات السحب
يسمو بها هذا الوجود الكثيف
الى سماء عجب

لولا يد غراء ما كانت
روحي لتستعلي
يا طالما وهال ما عانت
في العالم السفلي
لولا يد جادت بما صانت
دهرا عن البذل .

ليوبولدفيل ... جمال مرسي بدر

انتفاضة قلب

بقلم سهيلة داود سلمان



تدهش يا صاحبي ان وصلتك رسالتي هذه، فقد مرت سنوات وان بدت قصيرة فهي طويلة . وطويلة جدا بالنسبة لي مذ التقيت بك آخر مرة حتى رأيتك امس .. أجل امس ..

كانت السيارة تسير بي في اعياء وكلال وهي تلف ساحة النصر، وكانت الثالثة بعد الظهر ، من تلك السويعات الكسلى المتثائبة من ظهريات الربيع الحزينة في بغداد .. الشمس تلهب ذراعي ووجهي فاشعر معه بالكسل والتراخي حتى ليكاد مقود السيارة ان يفلت من يدي .. وفي تلك اللحظة بالذات .. رايتك .. ابطات السرعة حتى كاد المرور ان يتوقف .. كنت تسير برفقة شخص يبدو وكانه صديق اثير لديك .

تفرست فيك بنهم لاشبع نظراتي ولافتش عن اثار سني الفراق ... بضع شعرات بيض وخطت فوديك .. حاذيتكما حتى اصبحت على مبعدة خطوات منك ، وتعمدت النظر بامعان لئيم .. لكنك لم ترني ، ثم فجأة رايتك تضحك ، ذات الضحكة التي كانت الشيء الوحيد الذي جذبني اليك والتي كانت بالنسبة لي اشبه بنبع ماء في صحرائي المجدبة .. ترى ماذا كان يدور بينكما .. وما الذي اضحكك .. ايكون ما همس به اليك من الاهمية بحيث شغلك عن رؤيتي .. اكان حديثكما عن فتاة..؟ سوف تتهمني بالانانية اذ ليس من حقي ان اغار عليك ، ولكن هي ضحكتك التي اخترقت كل حياتي والتي حسبتها ستظل لي وحدي فاذا بك توزعها هنا وهناك وبكثير من الكرم .. وتساءلت اترى هناك ما يضحكك من بعدي ..! ها قد عدت ثانية الى انانيتي واني لست بقادرة على التخلص منها واني لا زلت اغار عليك رغم كل هذه الاعوام التي مرت. ماذا افعل ..؟ لقد ارجعتني ضحكتك كل تلك السنين الى الوراء ، يوم كانت كل شيء في حياتي وحتى بعد ان فرقت بيننا الاقدار .. لقد رافقتني من يقظتي وسباتي واجتازت معي طفولتي وصباي وجزءا من شبابي .. كانت معي اينما اكون واني حللت وغارت عميقا في قلبي .

نعم يا صاحبي الان وقد مرت سنون وسنون لايمكن ان اقول اني احبك فقد اكذب .. او انني على العهد ، اذ لا عهد بيننا ، واذا تساءلت لم اذن ؟ لاجبتك : انها مجرد انتفاضة قلب ، قلب حساس يعز عليه ان ينسى اول تفتح لبراعمه ، فقد كنت تاريخا عزيزا لدي .. ويا طالما حننت اليك

حنيني الى اغنية احببتها في طفولتي .. حننت اليك حنين المرء الى ملاعب طفولته حيث ترك فيها الكثير من حياته .. لقد كنت جزءا من حياتي. انها اشياء لا تستطيع ادراكها وليس بامكانك ادراكها لان قلبك لم يكن ابدا كقلبي ، كنت تتظاهر بالحب ليس الا ... ولكنك لم تكن تفهم اي شيء عنه . لقد عاديتني باسمه .. ولم تكن عندك انانيته ، فهل فكرت ولو مرة واحدة بان اكون لك وحدك ..؟ لا اظن ذلك .. قد تقول انك لذت بالصمت خشية ان اكون مشغولة عنك بغيرك ... فلماذا لم تبحث عمن كان يشغلني .. اذن كنت وجدته في رفة جفني ورعشة يدي وهمهمة شفتي ، ولكنت في غنى عن الف سؤال وجواب ... ولكنك وبكثير من الاسف اقولها .. لقد كنت جبانا ... فقد بقيت كل تلك السنوات الطوال تبني قصورك في الهواء ولم تجرأ على تشييد كوخ واحد على الارض .. كم مرة جمعتنا الصدف في طريق واحد .. وفي مكان عام ، فكنت ما ان تراني حتى تأخذ نظراتك اتجاها واحدا مغايرا لا تحيد عنه ، محاولا ان توهمني بانك لا تعير في اي اهتمام ، وكنت اعلم انك تخدع نفسك ، فقد كانت كل خلجة فيك تصرخ بالالم وانت تلمحني ويغدو وجهك باهتا كوجوه الموتى .. قلت اني افهمك .. افهمك جيدا يا رفيق صباي كيف لا وقد علمتني ان احب قبل ان افهم معناه ، وتعلمته قبل ان اتعلم كيف اسرح ظفائري .

آه .. كم يلذ لي ان اتذكر كل ذلك الان ، فاتخيلك وانت تقبل نحوي مراهقا صغيرا .. رجلا اكبر من سنه .. يخفق قلبك خفقان لا مثيل له ويرسم على وجهك تعبيرا رائعا .. ثم نصمت كلانا ولا نفوه بكلمة وقد نتحدث باشياء لا علاقة لها بالعواطف .. كم من مرة دسست لي اوراقا في كتب فلما كنت اجدها كنت ارتجف وانا امزقها قبل ان اتلو ما كتبت لي فيها وكأني بذلك احاول ان ابعد خطرك عني. كنت صغيرة على الحب تخيفني احاديثه وترعبني وريقاته ... لا افهم ولا اعي مقدار ما يكنه لك قلبي منه .. حتى دخلت الجامعة .

دخلت الجامعة وانا احمل افكارا مسمومة عن الرجال .. ذات الافكار التي اغضبتك مني والتي كانت سببا في مأساتك معي .

وبعد مرور عامين لي فيها ، تعرفت على كثيرين ، وعرفت انهم بشر لا يختلفون عنا معشر النساء ، لا يخيفون .. ولهم عواطف وآمال واحلام ، وبدات تغمرني نظرات بعضهم وملاحقات الاخرين وانا اصد واتجاهل وكلما كثرت مضايقاتهم كنت اقارن بينك وبينهم ، لم تكن تحركني اية نظرة منهم ، ولم يؤثر في كل ما يمنوني به من دنيا كبيرة واسعة .. و على الرغم من ان ملامح وجهك في ذلك الحين قد اوشكت ان تندرس في ذاكرتي لطول الفراق فقد ظلت ضحكتك ترن في اذني وتلاحقني .. لقد افترقنا صبيين ، ولم يعد لي غير ان اتخيلك وقد احاطت نفسي ضحكتك تلك اطر من مظاهر الرجولة فاغمض عيني واحلم واحلم ... واحلم .. ثم افتحهما على فراغ ...

ورغم ذلك كنت امني النفس دائما بانك ذات يوم ستسعى الي ، وان حسي لا يمكن ان يخدعني في انك لا زلت مقيما على حبي .. من يدري ، لعلني لم اكن اقدر الامور

وسولت لي نفسي مرارا ان احطم هذا الجدار من الصمت الذي يفصل بيننا غير انني سرعان ما كنت ارتد عن ذلك .. فكرامتي تأبى علي وانا فتاة ان اسعى الى رجل ... ماذا ستقول عني ..؟ وظل امل واحد يراودني وهو انك لا بد وان ستكتب لي يوما ما ، وبدات اراقب لوحة الاعلانات حيث تعلق عليها اسماء من تردهم رسائل من الطلبة في الكلية ، وذات يوم قرات اسمي ، فهرعت كالمجنونة وقلب يكاد يقفز من بين ضلوعي ، لقد خطرت انت ببالي من اول وهلة ، ومن غيرك يرسل لي رسالة ، لا احد غيرك ..؟ وفاتني ان هناك آخرين ليسوا كرجلي الشاذ هذا ، لقد حركت الرسالة كل مشاعري ... لم تكن منك .. كانت من شخص اخر ، من طالب شاعر ربطتني به زمالة التخصص ، وكنا نلتقي دوما في منطلق من ادب وفن ، فكان يريني ما يكتب من شعر وادب وكنت اطلعه على ما ارسم وما اكتب من قصص ، وكان ان شدت بيننا الفة ونظرة متفقة الى الفن والادب .

لقد خشي ان يصارحني شفويا بما يريد ان يقوله لئلا يغضبني فآثر ان يكتبه لي سطورا ملتهبة فيها الكثير من الشاعرية ، ولا زلت اتذكر بعض مقاطع رسالته تلك التي افتتحها بابيات من قصيدة لدوموسيه « يا ربتي ، ماذا يهمني من موتي وحياتي .. انني احب .. واود ان اذبل .. احب واود ان اتعذب .. واحب ومن اجل قبلة اضحي بعبقريتي ، احب واحب ان اشعر دائما على وجنتي الذابلتين بذلك الينبوع من دموع لا يجف .. احب ، واحب دائما ان اعيد واكرر انني اقسمت ان احيا وان اموت للحب ان قلت انني لن احب » .

ثم يتحدث عن قلبه وحبه ويود ان يسمعني نبضاته .. اجل لا زلت اذكر الكثير من تلك الرسالة ، ولعل غروري هو الذي يجعلني احفظ لهذا اليوم كل تلك المقاطع منها .. « لا ادري لم اشعر وانا احدثك ، انني افصل بين شخصيتين لك في ذهني » وتنتهي الرسالة ، الرسالة التي حسبت انها كانت منك .

وطويتها واسرعت بها اليه ، وبكثير من المرارة قلت له : تقبع في اعماقي صورة لاخر .. وبعد فاية كبرياء لعينة يا عزيزي ، هذه التي ورثتها والتي دفعت بك لان تخسر قلبي .. اربع سنوات في الجامعة وانا انتظر بشغف سعيك الي ، كم من قصة نشرتها في هذه المجلة او تلك اردت لها ان تنبهك لاسمي ، وكم من حفلة طلبة حضرتها وادرت عيني فيها علني المحك فلم تجد وكم من معرض للرسم اسهمت فيه واشتركت فيه جميع الكليات بما فيها كليتك ، وكنت اقف في زاوية من زواياه امني نفسي بمجيئك واقول : لعله من هواة الرسم واتخيلك وانت ترى صوري المعروضة وقد ذيلها اسمي فتدهش ثم تراني فتتوجه نحوي لتهنئني ويكون في ذلك نهاية لالمنا ، وابقى على هذه الحال احلم ، واحلم وكما يتلاشى الدخان تتلاشى احلامي .. ثم تركت راحلا الى البعيد دون سطر واحد تودعني به ، لكم تمنيت ليلة سفرك ان يصلك نبأ موتي قبل ان تحلق بك الطائرة ، ومن يومها كتمت كل اناتي في قلبي ، وفي كل عام ، وفي مثل هذا الموسم منه احس به ينتفض ، وادري انه الربيع مرةاخرى فامر ببعض مواطن الذكريات لاتنشق ما يثير عواطف وعواطف لدي ، اما قلبك فمن يدري الى اين يحمله كل ربيع من كل عام ..؟

ها انا اجلس بجوار النافذة الواسعة في بيتنا وقد فتحتها عن اخرها ، وفي الشارع ينهمر المطر كما ينهمر في ضميري ، ويصلني رذاذ منه ، فيرتطم شيء منه بوجهي فتنتعش ذكريات وتتداخل عواطف شتى في صدري حتى لتكاد تقتلعني ، وفي المذياع صوت فيروز ينطلق من عوالم بعيدة ، شلال حنان ، فاشعر كما لو انها تغني لي وحدي

حبك وايامي وحكايات سنين
يا ورد .. يا نسرين يا ثلج ع صنين
يا اول الجني .. يا خير الجني

وبعد يا اعز من احببت ، اليس من الاجدر بنا ان نغلق الباب ونؤمن بالقدر ونقول كما قال غيرنا : لقد كتب علينا .. وقدر لنا ، ومن يدري لعلنا لم نكن لنسعد ... على راي من يقول : ان الحب يقتله الزواج .

وهنا حيث اجلس ، كتلة من مشاعر ، المح على مسافة غير بعيدة ، وحيدي الصغير يلهو بلعبة في يده ، ويغني اغنية للاطفال عن المطر .. قد تدهش ان قلت لك ان به شبها كثيرا بك ، جبهته السمراء ، ضحكته ، لمعان عينيه ، حتى لاتساءل .. ترى هل لتعانق الارواح اثره في الوراثة ام انها مجرد خيالات مشوق .

وهناك في ركن اخر من الصالون يجلس زوجي ، وهو غارق حتى اذنيه في كتب السياسة وامورها .. انه ايضا لا يفهمني كما كنت ارجو ، فبقدر ما انا خيالية في تفكيري هو واقعي منطقي .

المعذرة يا زوجي الحبيب .. انها مجرد انتفاضة قلب .. وذكريات ماض لست مسئولا عنه .. كل ما هنالك انها تعاودني من آن واخر .. وثق بي ان قلت لك انها ذكريات بريئة ، براءة ندى الفجر ... ولكنها على اي حال تعاودني كجرح بليغ يوشك ان يلتئم ولكن وبلمسة منك يتحول الى جرح مؤلم .. هناك يا زوجي الكثير من النساء اللاتي لهن الكثير من الذكريات ولكن لن تكون بهذه البراءة .. وهن يكتمن ذكرياتهن وهذا هو الفارق بيني وبين الاخريات

لقد شد بيننا رباط مقدس ، وانا راضية وسعيدة ... فاذا ما صارحتك يوما بها وقد بنينا حياتنا على الصدق ، فقل لي : انك لست مسئولا عن ماضي . فلك حاضري ومستقبلي بكل آماله .. ولك حبي .

بغداد سهيلة داود سلمان

قصائد من جاك بريفير

ترجمة سعد صائب

دمشق

●

« سوف تعثر في شعر جاك بريفير لا على عفوية اللهجة فحسب ، بل على عفوية تأثيرها كذلك .. »

بيير هنري سيمون

●

الحرب ...

ايها البله
انكم لتبيدون بفأسكم العتيقة
كل الشجيرات
تبيدونها
تقتلعونها .
تبيدون ايها البله
الاشجار القديمة بجذورها
بصفوفها المتراصة القديمة .
انكم تحمونها
فتعلقون عليها معلنين انها :
اشجار الخير والشر
اشجار النصر
اشجار الحرية
واذ تنتن الغابة الجرداء الاخشاب النخرة
يهجرها الطير .
انكم تمكثون فيها تفنون
تمكثون فيها ايها البله
تفنون ... وتمضون ...

انشودة بنات الصيادين ...

طفن طفن يا صبايا
طفن حول المعامل
فستمسين وشيكا في قلبها
طفن طفن
يا بنات الصيادين ، وبنات القرويين
فالساحرات اللواتي اتين حول سرركن
الساحرات اللواتي اسلمهن اليكن اهل القصر
رحن يتحدثن اليكن عن المستقبل
قائلات انه لم يكن خيرا
وانكن ستعشن تعسات
وستلدن بنين كثرا
بنين كثرا
وسيحيون بدورهم تعساء
وسينجبون بنين كثرا
بنين كثرا
وسيحيون تعساء
وسيلدون بنين كثرا
بنين كثرا
طفن طفن يا صبايا
طفن حول المعامل
فستمسين وشيكا في قلبها .
طفن يا بنات الصيادين
وبنات القرويين ...

الكل باطل ...

صاح كهل بالموت والالم يملاشفاف قلبه
وهو يجوز الحديقة يدفع امامه طوقا
صاح هاتفا : لقد حل الشتاء وانتهى كل شيء
فنضج الجزر ، وتراخى زهر الورد ، وانقضت الصلاة
ومثلت المسرحية ، واسدل الستار .
الكل باطل
الكل باطل .
ثمة اصدقاء خلص يدعونني اليهم
بعد ان اسرفوا في بغضي
واصدقاء كهول مترهلون يرقبونني
وفي ايديهم ساعاتهم
يتوسلون الي ان اعرف كل ما يعرفونه .
الكل باطل
الكل باطل .
ثمة اصدقاء حقيقيون طواهم الردى بضربة قاصمة
واصدقاء ما برحوا احياء يضحكون بملء افواههم
وثمة سواهم ممن يدعونهم اليهم كما يدعونني في آن واحد .
الكل باطل
الكل باطل .
ان اولئك الذين لقوا حتفهم وهم احياء
ناءت بالحزن والاسى كواهلهم من احلام طفولتهم
وهؤلاء الذين امسوا القدوة في المثل الطيب والمنشا الحسن
مضوا يقتتلون ليتنبأوا لكم بما سيحدث .
الطريق مهيع ، والدرب سالكة
وتمثال الملح ينبيء بأن الوطن في خطر
وقد آن لهم ان يحتكموا الى العقل .
هو ذا صوت النفير تردده اعماق الحديقة
التي توشك ان توصد ابوابها
وبصمت قرع الطبل .
الكل باطل
الكل باطل .
اما الحديقة فستظل مشرعة الابواب
تستقبل اولئك الذين هاموا بحبها ...

الاطفال الذين يتحابون ...

الاطفال الذين يتحابون يتعانقون وهم وقوف حيال ابواب الليل
والعابرون الذين يمرون من حولهم
يومئون اليهم باصابعهم .
بيد ان الاطفال الذين يتحابون
ليسوا ثمة من اجل احد
وليس الا ظلهم فحسب
الذي ينتفض في جنح الليل
فيثير غضب العابرين
وهياجهم وازدراءهم وضحكاتهم وغيرتهم .
ان الاطفال الذين يتحابون
ليسوا ثمة من اجل احد
انهم في موضعهم انأى من الليل في موضعه
واسمى من النهار في شروقه
انهم في بهرة ضياء حبهم الاول (1) ...

دمشق — سعد صائب

(1) من كتاب « الحديقة المغلقة » من روائع الشعر في الشرق والغرب .

سعد صائب

الرئيس ابن سينا

بقلم عيسى ميخائيل سابا

***

مفخرة من مفاخر الشرق ومفكريه الاعلام ، علت به همته الى مجثم النسر ، فكان في علمه علما يمشي فوق علم ، وسعى وراء المعرفة فانقادت اليه ، وانقشعت له غيمتها المتلبدة وراء حجب العصور السحيقة ، وما تزال سحب تكتنفها ، فما يتغلب عليها الا كل جبار عنيد ، لا بالنضال والمدافع والمفرقعات الهدامة ، بل بنور العقل الباحث المنقب المستقرىء ، فكأنها هباء لطيف تتهادى فوق رقراق الماء ، والعقل امامها بين صعود وهبوط ، تارة يحلق بها الى اعلى قبة الافلاك ، متجاوزا ذرات الاثير ، تائها في مطارح الخيال بين الحدس والظن ، وما هي غير لحظة حتى يهبط الى العالم الادنى ، يحلل ذراته ويستنطق جماده ونباته وحيوانه ، لعله يهتدي سواء السبيل ، فيتعرف الى نفسه ليفقه من هو ومن اين والى اين ؟

وبعد البحث واعمال الفكر نراه ما يبرح مكانه . فمثله في ذلك مثل من يمشي على اطار ، فبينا هو مستسلم الى شوطه ، جاد وراء ضالته المنشودة او وراء خريدته النافرة ، اذا به يعود الى المكان الذي بدا منه سيره .

ذلك ما نراه في ما ازعم بفلسفة ابن سينا وغيره من الفلاسفة الاقدمين وبعض المحدثين . ولكل راي في شأن الخالق والخليقة ، فكأن الله سبحانه ابى ان يكشف عن ذاته المنزهة عن الكيف والكم الا لرجاله المخلصين الذين يشعرون به بعين الايمان ويدركونه بعقول الاطفال .

وابن سينا هو ارسطو الحكمة وابقراط الطب عند العرب والفرنجة ، وقد روت الموسوعة الاسلامية : ان الفرنجة نقلوا كتبه الى اللغة اللاتينية ، ولا سيما الطبية منها ، وكانت المرجع الاول في دراسة الطب بجامعة «سالارنو»، فاعترف له الجميع بالفضل وانتفعوا بتصانيفه.

اما مولده فكان في قرية خرمتين من امهات قرى بخاري في السنة ٣٧٠ هـ الموافقة لسنة ٩٨٠ م. واسمه ابو علي الحسين بن عبد الله بن سينا البخاري نسبة الى بخاري في آسيا ، ويعرف بالشيخ الرئيس . انتقل به ابوه الى بخاري صغيرا وهي يومئذ حافلة بالعلماء ، وذلك في زمن نوح بن منصور من ملوك الدولة السامانية ، فحفظ القرآن الكريم وشيئاً من التفسير .

وروى ابو الفرج الملطي غريغوريوس المعروف بابن العبري عن لسانه ، قال : « جاء الى بخاري ابو عبد الله الناتلي وكان يزعم معرفة الفلسفة فانزله ابي دارنا رجاء تعليمي منه ، فقرات عليه ظواهر المنطق ، واما دقائقه فلم يكن عنده منها خبرة. ثم اخذت اقرا الكتب على نفسي واطالع الشروح وكتاب اقليدس ، فقرات من اوله خمسة اشكال او ستة عليه ــ اي الناتلي ــ ثم توليت حل الكتاب باسره ، ثم انتقلت الى المجسطي ، وفارقني الناتلي ، ثم رغبت في الطب وصرت اقرا الكتب المصنفة فيه ، وتعهدت المرضى ، فانفتح علي من ابواب المعالجات المقتبسة من التجربة ، ما لا يوصف ، وانا في هذا الوقت من ابناء ست عشرة سنة».

وخلاصة ما يروي عن نفسه : انه كان يعمد الى الصلاة والابتهال الى الله كلما تعسر عليه حل مشكلة ، حتى يفتح عليه المغلق ، وكان ينكب في الليل على الدرس والمطالعة ، ونوره ضوء سراج من الزيت . وقيل ان نوح بن منصور قد اصابه مرض فذكر له ابن سينا ، فاستقدمه اليه ، فعالجه حتى برىء فقربه منه ، وكان عند نوح مكتبة قيمة . فاستأذنه ابن سينا في دخولها ، فاذن له ، وانصرف الى دراستها والنظر في كتبها ، فوعى زبدتها ، وتدبر اقوال المؤلفين جملة واحدة ، واخترقت المكتبة فلم ينل منها احد سواه فائدة ، وتفرد بما حصله من العلوم ، ويظن غير واحد من المؤرخين انه هو احرقها لينسب اليه ما وعاه من دقائق المعرفة .

ويقول « كره ده فو » وسواه انه منذ ذلك الحين اخذ بالتصنيف والتأليف . وما تجاوز العشرين من سنه حتى ارتفعت منزلته وتولى بعض المناصب ، وتنقل في بلاد خراسان، وهو موضوع التجلة والاعجاب ومصدر الاستفادة. ويستفاد مما كتب ونقل عنه انه كان يطمح الى المجد واعتلاء المناصب السامية ، فترك بخاري وقصد الامير قابوس في جرجان ، ولكن حوادث الايام حالت دونه ودون مطامعه ، فان الامير قابوس قد سجن ومات ، فمضى الى دهستان فمرض فيها مرضا صعبا اجبره على العودة الى جرجان ، وقد روى ابو عبيد الله الجوزجاني قال : « ان ابن سينا صنف في جرجان اول القانون ومختصر المجسطي وغير ذلك ، ثم انتقل الى الري واتصل بخدمة السيدة وابنها محمد مجد الدولة ، ثم خرج الى قزوين ومنها الى همذان ، فاتصل بخدمة كربانوبه وتولى النظر في اسبابها ، وسألوه ان يتقلد الوزارة ففعل ، واتفق تشويش الجند عليه واشفاقهم منه على انفسهم فكبسوا داره واخذوه الى الحبس واستولوا على جميع ما كان يملكه،وساوموا الامير شمس الدولة قتله فامتنع وعدل الى نفيه عن الدولة ، طلبا لمراضاتهم ، فتوارى الشيخ في دار بعض اصدقائه اربعين يوما وبعدها طلبه الامير وقلده الوزارة مرة اخرى ، ولما قبض شمس الدولة وبويع ابنه رغب جمع من اصدقاء ابن سينا الى الامير الجديد في ان يستوزره ، فأبى عليهم الطلب ، وتوارى الشيخ الرئيس في دار ابي غالب العطار ، وهنالك اتى على جميع الطبيعيات والالهيات ما خلا كتابي

تودد

جئت تسعى عند بابي
ايها المغرور كي تصطاد حسني وشبابي
بابتساماتك .. بالاشراق حينا .. والتصابي
وابتساماتك يا ويحي رقيقه
داعبت احلامي الثرة .. خلتني غريقه
بيد اني لم اكن يوما عشيقه
لا ولن ارضى عذابي
زد اذا شئت ولوعا
واشتياقا .. وخضوعا
فانا عذر صوابي

البصرة **ناصح محمود القاسم**

الحيوان والنبات من كتاب الشفاء ، وكاتب علاء الدولة سرا يطلب المسير اليه ، فاتهمه تاج الملك بمكاتبته وانكر عليه ذلك بعض اعدائه ، فاخذوه وجعلوه في قلعة يقال لهـا « بردوان » ونظم قصيدة منها :

دخولي باليقين كما تراه — وكل الشك فـي امر الخروج

وبعد ان بقي في القلعة اربعة اشهر ، اخرجوه وحملوه الى همذان ومنها خرج متنكرا بزي الصوفية مع ابي عبيد الجوزجاني واخيه وغلامين الى اصفهان ، وصادف فـي مجلس علاء الدولة ابي جعفر ابن كاكويه التجلة والاكرام ، وصنف كتبا كثيرة ومات في همذان في السنـة ٤٢٨ هـ الموافقة للسنة ١٠٣٧ م ، وهو في السابعة والخمسين مـن عمره ، اثر داء القولنج وهو مرض في البطن . وكان يقول في مرضه بعد ان سقطت قوته : « ان المدبر الذي كـان يدبرني قد عجز عن التدبير ، والان فلا تنفع المعالجة . » وقد قال فيه بعضهم :

ما نفع الرئيس مـن حكمه الطب — ولا حكمـه علـى النيرات
ما شفاه «الشفاء» من الم الموت — ولا نجـاه كتـاب « النجاة »

وفي البيتين اشارة الى كتابيه ، الشفاء والنجاة ، اما مؤلفاته فقد ذكر صاحب كتاب « كشف الظنون » انها تزيد على المئة ، واهمها كتابه الطبي « القانون » ، و « الشفاء » في الفلسفة ، ومتخصره كتاب « النجاة » . وفي جامعتي اكسفورد وليدن مجموعة من كتبه .

اما فلسفته ، فتنحصر في المنطق ، فقد شرح كتـاب ارسطو وحل رموزه ، وكان جل اهتمامه بالتحديد والحكم ، وقد استحسن الفلاسفة المدرسيون سنته في الجيل الثالث عشر بتقسيم العلوم الفلسفية .

ويتبين لنا مذهبه في علم النفس من قراءة فصل القوة ومراتبها في كتاب النجاة ، قال : « ان في الانسان خمسة عقول هي : القوة الفكرية الماديـة التي توصل الانسـان المعرفة المطلقة ، والعقل المكن المتضمن الحقائق البديهية الاولى ، والعقل السليم وهو الخاص بفئة من الناس وهو ما يؤدي بهم الى التصوف الديني ، والعقل الفريـزي . وينكر نظرية التناسخ التي قال بها فيثاغوروس ، ويسلم بخلود النفس وروحانيتها ، ونلمس ذلك في عينيته المنسوبة اليه ، ومطلعها :

هبطت اليك مـن المحل الارفع — ورقـاء ذات تعـزز وتمنـع
محجوبـة عـن كـل مقلة عارف — وهي التـي سفرت ولم تتبرقـع
وصلـت على كـره اليـك وربما — كرهت فراقـك فهي ذات توجـع

وختامهـا :

فكـانهـا بـرق تالـق بالحمى — ثـم انطـوى فكـانـه لم يلمـع

قوله : هبطت في جميع ابيات هذه القصيدة الما بزعم افلاطون وكان يقول : ان النفوس وجدت قبل وجـود الاجسام ، فلما خطئت في السماء قضى الله عليها بسجن الجسد ، وليس الجسد على زعمه الا آلة في يد النفس ، ومركوب تتخذه لادراك مآبها .

وان نحن بحثنا فلسفة الغـزالي نراه يكفر ابن سينا لقوله : أن الاجساد لا تحشر وانما المثاب والمعاقب الارواح ، وكان يعتقد بان العالم قديم . واما مذهبـه فيما وراء الطبيعة فيتلخص بما يأتي : الموجودات صادرة عن الله اي العقل الكامل « عقل العقول » والخير المطلق وعلة العلل .

العلة الاولى : هي اول الوجـود وعنها ينبثق عقل هو الاول ، ثم يتلوه عقل وعقل ، وتحت كل عقل فلك وصورته النفس ، وهكذا تسير العقـول متدرجة نازلة على سلم الافلاك حتى تنتهي الى العقل الفعال الذي يـدبر انفسنا وهو في فلك القمر ، وتحته عقول مفارقة ، وعقول بالفعل واخرى بالقوة .

وبعد ان يوضح كيفية الصدور عن الافلاك ، يشرح عن حركتها فيقول انها اثر للعلة الغائية التي هي الله ، الخير المحض فهو يجتذب النفس العاقلة لكل فلك .

والعقل الفعال هو الرتبة الاولى التـي ينكشف عنهـا الحس من رتب الروحانيات ، او بعبارة اخرى هو المصدر الذي تبعث منه ، بواسطة الحركات السماوية ، النفوس وباقي الصور الجوهرية التي يجب على المادة الارضية ان تقتبلها لتحل بها ، والمادة غير حادثة بل ازلية ، وهو يسلم ايضا بنظرية ارسطو في العلل الاربع وفي قضية الكليات . ومجمل فلسفته افلاطونية حـديثة ، وقـد ظهرت فـي الاسكندرية بعهد افلوطين واستاذه سكاس .

ومما نظمه في عدم ادراكـه ما يصبو اليه وكـان كبير الطموح كثير المطامع قال :

لا عظمت فليـس مصر واسعـي — لا غلا ثمني عدمـت المشترى

عيسى ميخائيل سابـا

صورة دوريان غراي لوايلد

بقلم جيرالد ويلز

ترجمة يوسف عبد المسيح ثروة

* * *

ولد اوسكار وايلد في دبلن – ارلندا في ١٦ تشرين الاول ١٨٥٦ . وكان تلميذا بارزا في دراسة الاداب الكلاسية في كلية (التثليث) وفي سنة ١٨٧٤ دخل كلية (المجدلية) باكسفورد حيث حصل على جائـزة (نيديكيت) على قصيدته (راقبنا) – ١٨٧٨ – كان (وايلد) قائدا رائدا لـ (الحركة الجمالية) التي تقدمت بالمفهوم الجديد حينئذ، مفهوم (الفن من اجل الفن) فاصبح بذلك شخصية بارزة في المحافل والحلقات الادبية والاجتماعية . ومن مؤلفاته قصصه الخرافية الساحرة (الامير السعيد وقصص اخرى) – ١٨٨٨ – التي اعقبت بـ (دوريان غراي) – ١٨٩١ – و (بيت الرمان) – ١٨٩٢ – ومع ذلك فهو لم يشتهر اوسع الشهرة الا بعد عرض تمثيليته (مروحة السيدة وندمير) – ١٨٩٢ – على الجمهور . وبظهور (امراة غير ذات موضوع) – ١٨٩٣ – و (اهمية الجد) – ١٨٩٥ – تثبت مركزه بصفته دراميا . وفي عام ١٨٩٥ اقام دعوى قذف على مركيز كوينزبري ، وبنتيجة المرافعة ظهرت قضايا مثيرة تخص اخلاق وايلد ، وفي ايار من تلك السنة حكم عليه بالسجن مع الاشغال الشاقة لتجاوزاته على (القانون الجنائي بملحقه المنقح) . وبعد اطلاق سراحه توجه الى القارة حيث كتب امتن قصائده ، وهي (نشيد الهدف) – ١٨٩٨ – ثم مات اوسكار وايلد في ٣٠ تشرين الثاني سنة ١٩٠٠ هضيم الروح طريح الفقر والعازة في باريس .

يقول (هافلوك اليس) في مقدمته لكتاب ج. ك هويز مانز (ضد البذرة) وهو الكتاب الذي اثر اشد التأثير في اوسكار وايلد ، يقول اليس محاولا التمييز بين الاسلوبين الكلاسي والمنحط : « ا نالاول جميل لان الاجزاء تتبع الكل ، اما الثاني فجميل لان الكل يتبع الاجزاء . »

و (صورة دوريان غراي) تقدم لنا مثلا كاملا على اهمية تعريف (اليس) للفن المنحط . فلم يؤجل وايلد بسرور افساد (دوريان غراي) حتى حفلة العشاء التي يستغلها اللورد هنري لتمثيل فصل مزيف من هويز مانز او الدس عليه ، (الفصل الحادي عشر) فقط ، بينما التمثيل يسحب قدميه سحبا ، بل هو يقاطع المشاهد التي تتدرج فيها الاخلاق ، لاجل ان يصف صوتا او منظرا او رائحة ابتغاء اللذة الحسية لا ابتغاء اضافة شيء على المزاج الذي ينطوي عليه المشهد .

وعلى هذه الشاكلة وفي وسط حديث من الاحاديث (نراه) يغير من اماكن المتكلمين ليكونوا صورا مؤثرة بغير ما مبالاة باللورد هنري وما يدعوه بـ (الواقعية الجافة) . ولنضرب لذلك مثلا ، ففي بداية القصة ، اثناء النقاش الطويل بين اللورد هنري وبازل هولوارد عما يعنيه دوريان للفنان ، نرى اللورد هنري « يقطف الاقحوانة ويبعثرها باصابعه الطويلة العصبية » ثم « يخبط لحيته السمراء المدببة ، ويضرب راس حذائه بعصا الابنوس المنقوشة » واخيرا « يشعل المقدمة امام العلبة الفضية الجميلة . ويشرع في تدخين سيكاره . ويجري كل هذا في الحديقة طبيعي ان وايلد يريد ان ينقل الينا لامبالاة اللورد هنري من طريق لوحة مرسومة . ولكن الواقعي الجاف او الكلاسي (اليس) لم يسحر بالتأثير المباشر تماما ، ومن هنا فهو يربط بين موقف وموقف لاستحضار صورة اخرى فاللورد هنري يضع عصاه بين اسنانه ويداه مشغولتان بتمزيق الاقاحي ونفض السكائر . ومن ميزات طريقة وايلد المؤثرة انه يوجز تعريفنا بشخوصه الذين لا يتشبثون بمواقعهم طويلا لئلا يخسروا نفوذهم كما يفعل اللورد هنري وحتى دوريان قبل نهاية القصة. ومن احسن هذه الشخوص ام سيبيل فين ، الممثلة القديمة ، التي تشهد كل منظر عائلي من طريق الموقف على المسرح ، وكذلك زوجة اللورد هنري التي تكون ردودها ما يشبه هستريا ضحية من ضحايا المجتمع . السيدة فلين توحي بشخصية دكنز ولعل وايلد كان ينوي ان تكون كذلك . اما السيدة هنري فهي معضلة اشد صعوبة . ان نبراتها – في مشهدها – من الدهاء بحيث يسعها ان تكون مرتاحة بين مرضى الاعصاب في مسرحيات كرانفيل باركر . ولما كان وايلد قلما يلجأ لهذه الطريقة من الايحاء ، فهو يفسر تعقد الشخصية (المطاوبة) بصورة اعتيادية ، ومن هنا تظل نفاسة المشهد عرضية .

وتسلسل القصة لا يتعقد الا لان الانسان الذي يبيع روحه لا يجد الشاري الشيطاني . ان (شيطانية) المنحطين الفرنسيين الذين اثروا في وايلد كل هذا التأثير ربما تكون حقيقة واقعة ، ولكن مفستوفيليس الذي ذهب للعمل من اجل غونود في هذا الوقت ، والذي مثله اللورد هنري ، طبق الاصل ، اصبح يغري وايلد ، ولو كان شيطانا رجيما . لقد افسد عليه تناقضه الفاضح فلم يعد يدرك ما يفعل . ولذا يقول : (لاجل ان تؤثر في شخص يجب ان تقدم له روحك) . من غير ان يدرك انه بذلك يفسح المجال لدوريان لينقل (روحه) الى الصورة التي رسمها بازل . يسر اللورد هنري بما اصابه من تأثير في الشاب ، ولكنه لا يدرك ابدا ما عادت به تعاليمه الحسية على دوريان وما قادته اليه مؤكدا له قبل قتل بازل وبعده بانه غير قادر على الجريمة لانها « من نصيب الطبقات السفلى » . ان تأثير الشيطان الغائب ، والروح المتاجر بها من اجل نظرة صبا ، والصورة الذاوية ، كل هذه رموز واستعارات لكنها تدل على الانحطاط والفساد . يتنازع دوريان اول مرة مع سبيل فين ، وهو الظالم البادي ، ولكنه بعد ذلك يحن الى اصلاح نفسه وحتى

خاتمة القصة يظل على شيء من الامل بخلاص نفسه . يستتبع من ذلك كله ، ان دوريان اصبح فاسدا ، لانه ساير طريق الحواس بتجسيده لافكار اللورد هنري الهيدونية (1) اما الشاعر التقليدي الذي هو وايلد فقد كان قادرا على (ان ينظم قصائد عصماء) تصور انكلترا محطمة تحت عبء الرغد والرفاهية وتفوح بنفحة من نفحات البيوريتانية . وكما يقول : « السنا ورثة ملتن ؟ » وعلى هذه الشاكلة نراه يلعن ضمنا المساومة مع الشيطان دامغا حياة دوريان بالشر — ومع ذلك فان الجانب الكبير في دوريان وهو انهماكه في الفن والاحاسيس كان جزءا لا يتجزأ من حياة وايلد الخاصة . لم يتمكن لا دوريان ولا وايلد من معانقة (الشيطانية) تمام المعانقة ، لان الخطيئة ظلت انجليزية بالقياس اليهما ، اي شيئا يجب الابتعاد منه او دفع جزائه لا شيئا يراد الاقتران به . وطبيعي ان يكون الغموض نتيجة ذلك كله . وفي الختام لا بد لطريق دوريان ان تقود الى القتل ومن ثم الى ساعة القصاص والقضاء على نفسه .. ولكن القصة — في الوقت نفسه — تظل توحي لك — ان الطريق مثيرة للاعجاب ، ودوريان شأنه شأن دي ايسانت ، بطل هويزمانز ، ليس قادرا فقط بل يجب ان « يكون قانعا بوجود مخلوقات مختارة من قبل اذهان مضطربة داهية » .

ثم يقع على (عاتق) اللورد هنري تفسير التعاليم التي يجب على موجبها ان يعيش دوريان غراي . (ومن هذه التعاليم) : (ابحث دائما عن احاسيس جديدة . لا تخف من شيء ... هيدونية جديدة — هذا ما يحتاجه قرننا) . هذه الكلمات التي تثير الصبي دوريان ، تصبح النص الذي يعيش على هواه . وبعد انتحار سبيل فين ، يتعلم شيئا واحدا هو ان صورته وليس وجهه هي التي تعكس افعاله ، وعندئذ يصبح في المستطاع قبول هدف الحياة : على انه « التجربة نفسها لاثمارها سواء اكانت حلوة ام مرة » يتابع اللورد هنري الامر الى الخاتمة . ففي الفصل الاخير يحتفل اللورد بمخلوقه كانه يجمل قصة دوريان مشيرا الى قلة فهمه للغول الجميل الذي اعان على صنعه قائلا : «آه دوريان ، ما اسعدك ! ما اجمل الحياة التي عشتها ! لقد نهلت من كل شيء بارتواء . لقد حطمت حبات العنب بسقف فمك ... ومع ذلك فانت لم تتغير ولم تتبدل ولم يقف في سبيلك شيء : (ان وايلد اديب متمكن من حرفته قادر على نقل ما يريد الى كتبه مما يقرأ من غير ان تعلم هل انه نقل صوتا اليها او فكرة .. (2) ان حبات العنب هذه هي حبات (كينس) على التحقيق وهي التي حطمها اللورد هنري في فم دوريان . قد ينسى اللورد وقد يتذكر وايلد ان هؤلاء الذين « فجروا عنب الفرح » هم وحدهم يستطيعون ان « يروا سوداوية مقنعة في معبد السرور » . يترك دوريان اللورد هنري ويذهب الى البيت ! « يقضي على حياة الروح المرعبة » آملا في الختام بانه « سيعيش بسلام بدون تحذيرات هذه الحياة البشعة . »

ان افساد براءة دوريان تبدأ بكل بساطة في « شعوره الجديد بالرغد » . والقصة مكتضة باشياء « جميلة » وركائز غريبة لا يملكها دوريان فقط بل اللورد هنري وحتى بازل . فثمة اقمشة مزركشة من عهد النهضة ، وزجاج بيضوي محيط بالهة الحب كيوبيد ، وخزف صيني قديم (وطقم زينة من الفضة المخططة من نوع (لويس — كونز) .. وحمام مبلط بالعقيق اليماني . « وروب من صوف كشمير مطرز بالحرير » .. هذه الاشياء الجميلة هي اكثر من (ديكور) لانها تجسد فلسفة اللورد هنري ، اي الحكم على كل فعل وكل شخص وكل موضوع بتعابير جمالية . فاذا كان هذا الامر يرضينا او يثيرنا فهو مقبول . وهذا الجو موجود في الصفحة الاولى من القصة قبل ظهور دوريان : « كان اللورد هنري ووتن مضطجعا على اريكة الطنافس الفارسية ، وكان يدخن العديد من السكائر على عادته ، ومن تلك الزاوية تمكن من لمح لمعان الازهار العسلية اللون العسلية المذاق ، ازهار (اللابرنوم) التي تبدو اغصانها المرتجفة غير قادرة على حمل ثقل الجمال .. ومن حين الى حين ترف ظلال الطيور (الغريبة) وهي طائرة على استرة الحرير المعلقة امام النافذة الواسعة محدثة نوعا من التأثير الياباني الوقتي .. » اضف الى ذلك ان هذه ستديو فنان فيه « صورة كاملة لشاب ذي جمال ممتاز » وعلاوة على ذلك ان السكائر « ملوثة بالافيون » ولا يتكلم اللورد هنري الا بـ « تمهل » . ان هذا هو عالم الانهماك الذاتي ، عالم السأم والخطيئة الرقيقة والشذوذ الجنسي الضمني والخلط بين المشاعر والفن ..

وبعد ان شعر دوريان بعالم اللورد هنري اول وهلة ، يكتشف في (ضد البذرة) ان الانسان يمكن ان يستفيد من الحاسيسة الجمالية ، وقد جهزه وايلد بفصل للتجربة فصل هو اشد مللا من كتاب هويزمانز باسره ، ووايلد الذي تفهم قراءة الانكليز (وشعره يشير الى معرفته لمزج قليل من نفسه بما يقتضيه الحال) ولذا نراه لا ينوي غلق الباب على دوريان كما فعل هويز مانز بديس ايسيانتيس . انه يرسل دوريان ليشبع « رغبة وحشية لمعرفة كل شيء عن الحياة » في سفرة تنتهي به الى « متاهة من الشوارع الداكنة السوداء والساحات الخاوية » وهنا يجد سيبيل فين ، وهي اخر مناسبة لمغازلته مع الطهارة ، وبعد وفاتها يغرق في حياة كالحة غامضة غريبة ، فيها مسرات شاذة اجرامية . ان في الكتاب اشارات الى الشر ، نحن نسمع خاصة من بازل الانسان الطيب ، ان اشاعات تدور حول راسه الذهبي (3) ولكن ماذا يفعل ، كيف ، اين (في الظلام) انه يفعل ما يريد دون ان ينكشف لنا القناع . نحن نعلم انه يتردد الى مواخير مرعبة بشمعة ، ونحن نراه في احدها نحن نعلم انه افسد العديد من الشباب الذين افتقدهم

---

(1) الهيدونية هي فلسفة المسرات الحسية ، المترجم .
(2) من كلام المترجم
(3) المقصود بهذا الراس راس دوريان غراي وهو ما تثبته القرينة ، المترجم .

المجتمع الى الابد ، ولكن الشاب الوحيد الذي التقينا به في ماخور الافيون لم يفعل شيئا سوى انه صنع طيارة ورق من صك من النقود شأن الاطفال في درامات المجتمع الفكتوري المتأخر . اننا نجد - في ذلك الماخور الصاخب - هيكل امراة حطمها دوريان كما نعلم بوجود العديد من السيدات الاخريات اللواتي وقعن ضحية خداعه ورمين جانبا . وفي الختام تحدث جريمة القتل .

لقد لعب الزمن لعبته الخادعة بانحطاط دوريان وايلد . لقد كان يملأ الحضور بمزيج من التشوف والرغبة ، ولكنه اصبح الان شيئا مضحكا ، لان العصر عصر صريح . ان غراهام غرين علمنا كيف نحضر الافيون في (الامريكي الهادىء) وجعل العملية تشبه عملية تقديم كوب من الشاي اما ماخور وايلد الشرير فيشبه سلسلة من (الازهار المحطمة) .. ان جنس دوريان كافيونه رومانسي عميق . ومع تورطه بالمشاعر الحسية يظل بعيدا عن الجنس وهذا امر غريب . اما غرام بازل به فيعالج معالجة رقيقة بحيث يبقى هو وغيره من الاقتراحات الجنسية الشاذة مجرد اقتراحات ليس غير .. دوريان يحطم النساء لان السادة غير الاماجد يفعلون ذلك في الرواية الانكليزية والدراما من سنين عديدة ومع هذا كان له شانه مع النساء في مشهدين حقيقيين فقط . ففي المشهد الاول يقوم بدور الولد النزق حيال سيبيل فين وفي الاخر يتراجع هو ليفسح المجال للورد هنري ليلعب دور ميرابيل حيال ميلامانت دوقة مونماوت . وبعد اربعة عقود من الصراحة الجنسية في مختلف صنوفها يصبح محتملا قراءة الفكتوريين والادواريين بعيون جديدة . تبدو اشارات وايلد المكفهرة تافهة . اما شو فهو الوحيد من بين الناس - يستطيع ان يفكر بكانديدا ومارتشبانكز قدام الموقد ، ويعرف كيف يكتب مشهدا جنسيا حقيقيا بغير حل زر من الازرار . واذا كانت خطيئة دوريان تبدو مؤنسة فكم بالحري ان يكون جماله واناقته حدثت في السنين القلائل الاخيرة انتعاشة (انحطاط) ما لبثت ان اجهضت ، ولكن شخوصها الانيقة تشبه دوريان بعض الشيء ، لان ايامها مليئة بالحاجة الى البحث عن لقمة العيش . ومع ان معارض بعض المخازن الفخمة في المدن الكبيرة تعكس هذه الانتعاشة (لكن الامر غير متسق مع عصرنا الحاضر) . وحين يبدع تنسي وليمز دوريانه في (الصيف الفجائي الاخير) مسمياً اياه سابستيان فينابل، نراه لا يظهر في المسرحية ، ولكن حياته الغريبة وحشرجة موته لا توصفان الا في الخاتمة ، وهكذا فهذا الشخص المحب للجمال يصبح بقصد او بغير قصد شخصية هزلية ، ومن هنا واجهت (الصيف الفجائي الاخير) ضحكا حين عرضت على شاشة السينما .

لم يتردد وايلد قط في استخدام العقد النموذجية . فهو - مثلا يستخدم حيلة مسرحية قديمة في الفصل الاول من دوريان غراي بمكابدة الدخول الى نفسية البطل ، وهذه تتلخص في المناقشة الطويلة بين اللورد هنري وبازل ، اهتمام الاول الواضح بدوريان وعدم رضا الثاني بالتقاء الاثنين ، كل هذه الامور يمكننا ان تحدثنا بشيء عن شخوص القصة الثلاثة ، ولكنها على العموم لا تقدم لنا شيئا غير الترقب ... اما العقد البالية التي يستخدمها وايلد فتوضع على مائدة الترقيع مضافا اليها الوانه الخاصة ولنضرب لذلك مثلا (مروحة السيدة وندرمير) فوايلد يستخدم النزاع المحبب الى بنيرو : واعني به المجتمع في قبالة المراة الساقطة . وهو من العاطفية بحيث يسمح للسيدة ابرلين ان تنقذ ابنتها على حساب سمعتها ، وبدلا من قتلها كما كان بنيرو لا بد فاعلا ، فهو يجازيها بزواج رابح . وكذلك الحال مع قصة (سيبيل فين) هنا توجد مواد لدراما عاطفية . البنت الشابة الجميلة التي يعتدى على طهارتها ، والعاشق الفني المتحجر القلب ، والانتحار المثير والاخ المنتقم ، (تقول سيبيل : « انت تشبه واحدا من ابطال الدرامات الشجية السخيفة التي كانت والدتي مشغوفة بتمثيلها » .) ولكن كيف تحولت المواد من حادة الى مادة ؟ العاشق يعتدي على طهارة الفتاة بعد رفضها والاخ المنتقم يقتل مصادفة في حادثة صيد وحتى حادثة الانتحار البائسة تفقد دموعها . يعترف دوريان بذلك قائلا « هاري ، لو اني قرات كل هذا في كتاب لبكيت على ما اظن » ومن هنا فهو يعتقد بان حياة سيبيل فين وموتها كمأساة اغريقية ، في حين يحسبها اللورد هنري مأساة (يعقوبية) والواقع انالمأساة مثيرة للدموع لكنها فيالنص الذي هي فيه ترفض ان تسمح برمشة عين .

لقد تمكن وايلد من ثلم حدة تقاليد سيبيل بيد انه لم يتمكن من الحيلولة دون اشاعة امثال هنري اللاذعة . وذات مرة أطلق الرسام ويسلر مليحة من ملحه المشهورة فقال وايلد : « يا ليتني قلت هذا » فاجابه الرسام « اوسكار ، انك ستفعل ذلك ، ستفعل » . فسر جواب ويسلر هذا بطريقتين . الطريقة الكريمة تذهب الى ان : سمعة وايلد في مجالات الفطنة ستحمل المجتمع على رد الفضل اليه لانه سار على وقف خط ويسلر . اما التفسير الاقرب الى الاحتمال والشاهد على ذلك هو اللورد هنري نفسه فيقول ان وايلد سيحل محل ويسلر . وقد لا يكون وايلد اخذ بنظر الاعتبار اشارات اللورد هنري « ايام الدراما الانكليزية العابقة » التي اقتبسها من شو ، ولكن نقد الاخير للموسيقى في تلك الفترة جعل هذه الاشارات امورا واردة ، والامر الاكيد هو انه اعتمد على نفسه . فالامير بول البطل الفطن النذل ، بطل مسرحية وايلد الاولى (فيرا او الفوضويون) ينقل « التجربة التي يعزوها الناس الى اخطائهم » ينقلها الى القصة ، حيث تتخذ لنفسها نبرات فلسفية . يعطي اللورد هنري بقدر ما يتسلم . اما اللورد دارلنكتون في (مروحة السيدة وندرمير) فهو يستفرض الاشارة الى ان الناس يعرفون سعر كل شيء ولا يعلمون بثمن اي شيء اما الفرنون في (اهمية الجد) فهو يقول : ان الارملة اصفر شعرها من الالم ... وهذه المسرحية هي على التوكيد من احسن الكوميديات الانكليزية وابقاها على الزمن .

بغداد **يوسف عبد المسيح ثروة**



محمود الحسنية

اليازجيان الكبيران والارساليات

بقلم محمود الحسنية

في النصف الاول من القرن الماضي اخذت الارساليات الاجنبية تتوافد على لبنان من انحاء متفرقة من العالم . ومنها الارسالية الاميركية ، فادت رسالتها في التبشير على اكمل وجه ، اذ اقدمت في سنة ١٨٣٤ على نقل مطبعتها التي كانت قد اسستها في مالطة سنة ١٨٢٢ ، ووضعتها في بيروت بالقرب من كنيسة دار الاحد ، بعدما رأت ان بيروت طليعة مركز ثقافي في الشرق الاوسط . فطبعت الكتب والمنشورات العديدة ، وصرفت عنايتها الى التعليم والتدريس ، ولكنها رأت ان اللغة الانكليزية وحدها لا تفي بالمطلوب ، الا اذا علمت اللغة العربية وادابها ، فجدت اليها بكل نشاط ورغبة ... واستعانت بالاساتذة العرب ، فكان لها في كلية عبيه الاميركية المعلم بطرس البستاني ١٨١٩ — ١٨٨٣ مساعدا للدكتور كرنيليوس فانديك في الادارة والتعليم ، وكان لها الشيخ ناصيف اليازجي معلما في مدارسها ومشرفا على الطباعة في مطبعتها التي ادارها عالي سميث وتعهدها حتى وفاته ١٨٥٧ حيث انتقلت ادارتها لفانديك وقد زاد انتاج الطباعة والنشر بعدما سبكت الحروف العربية ، وزاد هذا العمل المعلم الشيخ رغبة في اداب اللغة العربية ، فنظم القصائد البديعة ، ودبج بقلمه الساحر الفياض المقالات الشهيرة . وامد الكليات والمدارس بمصنفاته اللغوية العديدة التي خلدت ذكره ورفعت من شهرة المطبعة ، واسهم مع سميث وفانديك ، والمعلم بطرس البستاني ، واحمد فارس الشدياق وبعض اللبنانيين بترجمة التوراة للارسالية الاميركية ، فجاءت العبارة ضعيفة لان المترجمين تقيدوا بالنص الحرفي .

وفي سنة ١٨٧١ توفي الشيخ ناصيف وكان له ثمانية اولاد اشهرهم بين الاناث : وردة الكاتبة الاديبة ، وباعثة النهضة النسوية ، فكانت زهرة فواحة الاريج ووردة في « حديقة الورود » : واشهرهم بين الذكور : الشيخ ابراهيم الكبير .

ابصر نابغتنا النور في بيروت في الثاني من اذار سنة ١٨٤٧ ، وكان والده قد نزح اليها من كفرشيما بعد مغادرة الامير بشير الشهابي لبنان حيث لازمه وقتا طويلا اذ كان شاعره وكاتبه ، وكان لبداية الحوادث الطائفية البغيضة سببا في هذا النزوح .

تلقى الشيخ ابراهيم عن ابيه مبادىء العلوم ، وقواعد اللغة ، والخيال الشعري ، فنظم الشعر وهو صبي ، وزاوله في سن الشباب ، فذاعت معه شهرته ، وغدا مرجعا لغويا . تراكمت عليه رسائل الشعراء والادباء تستفتيه فيما تكتب ، فاخذت هذه الرسائل اكثر وقته ، فضاق بها ، ثم ترك الشعر وانصرف الى الادب ، وغاص في لجج اداب اللغة العربية وعلومها ، شغوفا ، يغرف من دررها الكنوز الدينية ... كان به توق الى سحر وبلاغة القرآن ، فحفظه غيبا . درس الفقه على يد الشيخ محي الدين اليافي ، ثم امتد طموحه الى المجال الصحفي ، الذي كان حديث العهد في لبنان ، فاستهواه ، وحين عهد اليه بتحرير جريدة النجاح البيروتية سنة ١٨٧٢ ، بدت مقدرته الصحفية ، وتذوق اللبنانيون ظرف انشاء كبير ادبائهم .

كان على صلة بالدكتور فانديك فاخذ يتردد على المطبعة الاميركية ، وصنع بيده الحروف العربية ، وساعد في صناعة حفر الاختام والصور كما صنع فيها بخطه الجميل اول تقويم عربي .

اتصل به الاباء اليسوعيون وعهدوا اليه بترجمة الكتاب المقدس وفوضوا اليه تنقيح العبارة من حيث الانشاء والضبط النحوي واللغوي ، فقبل الرغبة والتفويض وباشر الترجمة ، فدرس اللغة العبرانية على نفسه ، لتطبيق عبارة التعريب على الاصل وثابر على هذا العمل الخالد تسع سنوات حتى اتمه .

علم البيان واداب اللغة العربية في المدرسة البطريركية ، فكان منه السحر والبلاغة .

حرر مجلة الطبيب من ١٥ اذار ١٨٨٤ لغاية ١٨ شباط ١٨٨٥ بالاشتراك مع الطبيبين بشارة زلزل وخليل سعاده بناء لرغبة متعهدها الدكتور جورج بوست ١٨٣٨ — ١٩٠٩

سافر الى اوروبا سنة ١٨٩٤ ، ثم منها الى مصر حيث وافاه الدكتور زلزل واسس معه مطبعة ، ثم اصدرا مجلة البيان سنة ١٨٩٧ . وفي سنة ١٨٩٨ اصدر مجلة الضياء وانفرد بادارتها وبتحريرها وفيها اختتم اعماله الادبية وبقي يتعهدها حتى وافته المنية في المطرية في الثامن

والعشرين من كانون الاول سنة ١٩٠٦ ، ومنها نقل جثمانه الى القاهرة حيث جرى له مأتم حافل ، اشترك فيه رجال السياسة والادب والشعر ، ابنه العديدون ، منهم شاعر القطرين خليل مطران ١٨٧١ – ١٩٤٩ بمرثاته الشهيرة :

رب البيان وسيد القلم وفيت قسطك للعلى فنم

لم يبق من اليازجيين انذاك ، الا حبيب ابن اخيه الشيخ خليل .

كان الشيخ ابراهيم حائزا على وسام السلطنة العثمانية وعلى براءه بشهادة العلوم والفنون من ملك اسوج .

رغبت اليه الجمعية الفلكية في باريس والجمعية الفلكية في سلفادور ان ينتسب في عضوية كل منهما . في سنة ١٩١٣ نقلت رفاته وضمت الى رفاة ابيه في مقبرة الزيتونة في بيروت . وفي ١٧ تموز ١٩٢٤ اقيم له تمثال نصفي من البرونز فكان اول تمثال يقام لاول اديب عربي وضع بالقرب من بوابة درج يعقوب ثم نقل الى حديقة وزارة التربية الوطنية « الاونسكو » ١٤ – ٢ – ١٩٥٧ .

صفاته : عاش عازبا ، كان ربع القامة ، نحيف البنية ، عصبي المزاج ، حاد البصر ، ذكي الفؤاد ، سريع الخاطر ، يطرب النكتة الادبية ، شديد الحرص على كرامته ، عفيف النفس ، اثنى على شعر ابن الفارض واعجب بشعر المتنبي كان واسع الاطلاع في علم الفلك ، وملما بالرياضيات والرسم ، لم يكن مجلسه يخلو من أي بحث ادبي وشعري ، اشهر ما قال قصيدته السينية :

دع مجلس الغيد الاوانس وهوى لواحظها النواعس

وقصيدته التي تبرز فيها عروبته

تنبهوا واستفيقوا ايها العرب فقد طمى الخطب حتى غاصت الركب

ومن مناظرته مع احمد فارس الشدياق تبدو عفته وكرم خلقه حيث يقول :

ليس الوقيعة من شاني فان عرضت اعرضت عنها بوجه بالحياء ندي
اني اضن بعرضي ان يلم بـه غيري فهل اتولى خرقه بيدي

مؤلفاته : – اهمها : الجمانة في شرح الخزانة ، اللغة والعصر ، لغة الجرائد ، التعريب وشروطه ، اغلاط العرب القدماء ، اللغة العامية واللغة الفصحى ، اصل اللغات السامية ، نقد لسان العرب ، اغلاط المولدين ، العقد نخبة الرائد في المترادف والمتوارد من الفاظ اللغة العربية ، المختصر في علم الصرف والنحو ، مجموعة من التصانيف العديدة ، ابحاث نفيسة في الطبيب والبيان والضياء وبعض الصحف . شرع في وضع معجم للغة العربية يشتمل على المانوس من كلام العرب الاولين وعلى ما طرا من موضوعات المولدين والمحدثين مقتصرا على الفصيح دون المولد والمحدث في الاصطلاح وسماه « الفرائد الحسان في قلائد اللسان » ولكنه بقي اوراقا مبعثرة لم يسعد الحظ بجمعها . اهم عمل قام بـه ، ترجمة التوراة للاباء اليسوعيين ، وفي مجال الترجمة انتقى للغة العربية الفاظا اصطلاحية جديدة من اللغة الفرنسية مثال Cocher حوذي ، Dot بائنة ، Buffet مقصف ، Milieu بيئة ، Balcon جناح ، Revue مجلة ، Guillotine مقصلة ، مع كلمات عديدة يرجع له فضل اخراجها الى حيز الوجود هذا نزر من فيض اتحف به خزائن اللغة العربية . . ومن يريد ان يعرف بالشيخ ابراهيم كمن يعرف بالشمس في وضح النهار ، ومن يريد ان ينشر دقائق حياته الادبية ، فانه يوفق بعض الشيء ، اذا كان فيه انعكاس من ذلك الشعاع الوهاج ، وحدسية برجاحة من العقل النير .

لذلك يتعذر على اي اديب ان يسبر غور فكر معلم الاجيال ، حيث لا يمكنه ان يلم باطراف شمس من النبوغ انارت رقعة فسيحة من هذا العالم .

فالشيخ ابراهيم ، فريد عصر ، ووليد قرن ، وتراث امـة .

محمود الحسنيه



قال موم : لست اضمن صحة الوقائع التي ورد ذكرها في هذه القصة . ولكنها قد قصها علي استاذ الادب الفرنسي في احدى جامعات انجلترا وهو رجل على خلق عظيم ولذلك فاني اعتقد انه ما كان يقصها علي لو لم تكن وقائعها صحيحة . وكان من عادة هذا الاستاذ ان يلفت اذهان طلبته الى ثلاثة من الكتاب الفرنسيين الذين اجتمعت لهم — في رايه — خصائص هي المصادر الاصيلة للخلق الفرنسي .. وهو يقول في ذلك : انك اذا قراتهم استطعت ان تعرف الشيء الكثير عن الشعب الفرنسي . وانه لو كان له من الامر شيء لما عهد بشؤون الحكم في فرنسا الا لمن جاز امتحانا قاسيا . موضوعه مؤلفات اولئك الكتاب وهم : (رابليه) بسخريته اللاذعة و (لافونتين) بعقله الناضج . واخيرا (كورني) الذي انعش الادب الفرنسي وترك في دنيا ذلك الادب دويا . وهو الذي يعد المبدع للفن الدرامي في فرنسا . وهو اول من عني بالدراسة السيكولوجية في رواياته . وهو الذي اوحت احدى رواياته الى النبلاء الفرنسيين في (فونتينوى) ان يقولوا لضباط الملك جورج الثاني « اطلقوا النار انتم اولا ايها السادة » ! وهي التي اوحت الى الجنرال (بيير كامبرون) ان يقول — وهو يحارب في معركة واترلو — وقد احاطت جموع العدو بوحدات من رجال الحرس : — ان رجال الحرس يموتون ولكنهم لا يستسلمون ابدا ..

ان استاذي الذي قص علي هذه القصة ليس بالرجل الذي يعني بالاباطيل وهو يرى ان القصة التي سأقصها عليك قد كشفت عن المميزات الاصيلة لسجايا الشعب الفرنسي .. ولقد سميتها « الحقائق والصور » . وهو عنوان قد يرى فيه قومي — كما افترض — انه اكبر عمل فلسفي قد انتجته بلادي — ان حقا وان كذبا — في القرن التاسع عشر ..

ان القارىء لهذه القصة قد يرى انها قصة جافة ولكنها — الى ذلك — تستحث القارىء على المضي في القراءة .. ان فيها قدرا كبيرا من الفكاهة ..

ولا عذر لي في اتخاذي هذا اللقب لقصة بارعة كهذه القصة سوى انه لقب يصلح لها كل الصلاحية .. ولو ان البطلة (ليزيت) ليست فيلسوفة الا بالمعنى الذي يجعلنا جميعا فلاسفة اي انها تتخذ من الفكر اداة تعالج بها مشكلات الوجود ان احساسها بالحقائق قوي جدا كما ان مشاركتها الوجدانية فيما يتعلق بالمظاهر والصور هو امر لا ياتيه الباطل . حتى لقد تستطيع — الى حد كبير — ان تزعم



بقلم سومرست موم
ترجمة مبارك ابراهيم

لنفسها انها قد اقامت بنيان التوفيق بين الاضداد وهو الامر الذي كان هدف الفلاسفة منذ قرون عديدة .

ان (ليزيت) كان فرنسية . وكانت تقضي ساعات كثيرة في كل يوم من ايام العمل وهي ترتدي الملابس وتخلعها في اغلى معارض الازياء واحدثها طرازا في باريس .. وهي وظيفة يبتهج لها خاطر فتاة تدري دراية تامة انها قد اوتيت من الجمال حظا عظيما .. وموجز القول انها عارضة ازياء .. وقد كانت تلك الفتاة فارعة القوام حتى لتستطيع ان تجرر اذيالها في رشاقة وانسجام



.. وكانت خفيفة الارداف خفة بالغة حتى انها كانت اذا خطرت في ملابس الالعاب شممت منها رائحة ازهار الخلنج .. اما ساقاها الطويلتان فقد اتاحتا لها ان ترتدي (المباذل) ارتداء يتميز بالاناقة .. واما نهداها الضامران فقد جعلاها — اذا هي ارتدت ملابس الاستحمام — فتنة للناظرين .

ان (ليزيت) لها قدرة على ارتداء كل شيء . ولها طريقتها التي اختصت بها في ارتداء ثوب صنع من فراء الارانب حتى لتجعل اكثر الناس معرفة بقدر الاشياء لا يضن باي مال ثمنا لهذا الثوب الرخيص ..

ان النساء السمينات المكتنزات . والنساء الباديات العظام . والنساء اللائي عدمن التناسب والقسامة . والنساء العجائز . والنساء غير المتبرجات قد جلسن كلهن فوق كراسيهن وقد اعجبن بالفساتين فاشترينها . ذلك لان (ليزيت) قد بدت فيها كلها جميلة . وذلك لان تلك الفساتين كانت تلائمها كل الملاءمة وكانت تبدو وكانها تزهو بها ..

ان (ليزيت) كانت لها عينان من العيون الصحاح الدعج . وكانت واسعة الفم . وكان يخالط بشرتها نمش خفيف ..

وكان بريق عينيها هو الذي لفت اليها انتباه السيد (ريمون لي سيير) وفتن لبه . وهو جالس في كرسيه الى جوار زوجته التي اغرته بالمجيء معها ليشهد معروضات فصل الربيع وكان مجيئه معها دليلا على رقته وظرفه . وما كان احد يظن ان رجلا عنده من المهام والمشاغل ما يستنفد كل وقته يجيء فيجلس ساعة كاملة ليشهد سربا من الفتيات الجميلات وهن يعرضن اجسادهن في فساتين تبعث في النفس الدهش .. وما كان يخطر ببال صاحبنا ان فستانا من الفساتين يمكن ان يجعل من زوجته امراة سواها . فقد كانت طويلة القامة مهضومة الحشا وكانت في الخمسين

من عمرها .. والحق انه لم يتزوجها من اجل حلاوة قسماتها . وحتى هي ما كانت تظن — حتى في الليالي الاولى من ليالي شهر العسل انها قد اوتيت تلك الحلاوة .. انما هو قد تزوجها ليضم مصانع الصلب التي كانت هي الوارثة لها الى مصانع القاطرات التي كان هو المالك لها .. ومن ثم كان الزواج صفقة رابحة .. وقد انجبت له ولدا كان يلعب لعبة التنس وكأنه واحد من المحترفين . وكان في لعبة (البردج) يستطيع ان يباري الخبراء العارفين . كما ولدت له فتاة استطاع هو ان يهبها مالا كثيرا تستطيع ان تقدمه صداقا لرجل يكاد ان يكون اميرا من الامراء ذوي الحسب والنسب ..

وكان عند صاحبنا من الاسباب ما يجعله يكاثر ويفاخر بثرائه وماله . فهو بكده وجده . وبأمانته ونزاهة نفسه ازدهرت اعماله ازدهارا جعله قادرا علىان يكون له حق الهيمنة على مصنع من مصانع تكرير السكر . وعلى شركة من شركات السينما وعلى مصنع من مصانع السيارات وعلى صحيفة من صحف الاخبار . ثم اصبح قادرا اخر الامر على ان ينفق مالا كثيرا ليظفر بعضوية مجلس الشيوخ ..

وصاحبنا كان رجلا رائع المظهر . ظاهر الابهة ، له رأس اصلع ولحية مهندمة وقد خطها الشيب . وله كيس من الدهن في مؤخر الرقبة .. وليست بك حاجة الىان تنظر الى شارة التمايز التي ازدانت بها سترته السوداء لتعرف انه من اصحاب الجاه والسلطان ..

وهو رجل سريع البت في الامور فما أن غادر هو وزوجته مكان العرض حتى افترق عنها بحجة انه سوف يسير علىقدميه — حبا في التريض — الى مجلس الشيوخ حيث يدعوه الواجب نحو بلاده .. ومهما يكن من شيء فانه لم يذهب الى المجلس يومئذ مكتفيا بالسير جيئة وذهابا في شارع خلفي خطر بباله — وقد صح هذا الخاطر — ان الفتيات العارضات سوف يجتزنه بعد انقضاء ساعات العمل . ولم تمض الا دقائق معدودات حتى تدفق النسوة سربا من بعد سرب فيهن الشابات الفاتنات وفيهن من لسن بشابات ولا فاتنات. وبعد دقيقتين او ثلاث بدت (ليزيت) وهي تمشي مشي السحابة ، لا ريث ولا عجل .. وكان الشيخ يعلم علم اليقين ان مظهره وسنه يحولان بينه وبين اعجاب النساء به لاول نظرة . ولكنه كان يعرف ان ثراءه ومقامه في المجتمع يستطيعان ان يجعلا التعادل ممكنا .. ومضى الشيخ للقاء (ليزيت) محييا اياها في ادب برفع قبعته — ولكن لا الى حد كبير — وذلك مخافة ان تشهد ما برأسه من صلع ثم قال — مترضيا متحببا — مساء الخير — يا آنستي .. فنظرت اليه نظرة هي اقصر النظرات ، وتصلبت شفتاها بعد ابتسامة مرتعشة ثم اشاحت بوجهها وانطلقت تتحدث الى صديقتها ثم مضت في طريقها وفي مشيتها ما ينم على اللامبالاة في اقصى حدودها .. وسار الشيخ وهو اهدأ ما يكون بالا واتبع الفتاتين علىبعد بضع خطوات . وقطعت الفتاتان ارض الشارع الخلفيالصغير ثم انطلقتا الى الشارع الكبير حيث استقلتا احدى العربات الحاشدة .. واطمأن الشيخ الاطمئنان كله اذ قد عرف حقائق كثيرة : منها ان (ليزيت) وهي تغدو الى بيتها في صحبة فتاة صديقة تقدم الدليل على ان ليس لها محب عاشق تركن اليه وتلوذ به .. ومنها انها ابتعدت عن طريقه وهو يدانيها ، وفي هذا دليل على حيائها ورجاحة عقلها وحسن سلوكها ، وهي الاشياء التي يحبها في الفتيات الجميلات .. ومنها ان رداءها وقميصها وقبعتها وجوربها وكلها من الانواع الرخيصة الثمن تقوم دليلا على انها فقيرة ، وعلى انها تتحلى بالعفاف وبالطهر .. ولقد بدت (ليزيت) في تلك الملابس فاتنة جذابة كما كانت وهي ترتدي تلك الملابس الغالية التي كانت تعرض بها الازياء : وخفق قلب الشيخ خفقا رقيقا ، واحس احساسا لطيفا — على ما يسببه هذا الاحساس من الم غريب — وهو احساس قد قدم العهد به . ولكنه قد عاد فملأ شغاف قلبه دفعة واحدة .. فتمتم الشيخ قائلا : انه الحب ! واقسم على هذا ! وما كان الشيخ يتوقع ابدا ان يحس بالحب مرة اخرى .. ومشى الرجل في خطوات مطمئنة ومضى الى مكتب رجل من رجال الجاسوسية غير الرسميين ، وهناك طلب الى العاملين به ان يجيئوه بالخبر اليقين عن فتاة تدعى (ليزيت) تعمل عارضة للازياء في بيت من بيوت الازياء ، ثم استقل سيارة الى مبنى مجلس الشيوخحيث دخل المكتبة وجلس على احد الكراسي وغفا اغفاءة اراحت اعصابه .. وبعد ثلاثة ايام جيء له باخبار الفتاة .. فهي (الانسة ليزيت لاربون) تقيم مع عمة ارملة في حجرتين . في حي من احياء باريس .. اما ابوها — وكان بطلا من ابطال الحرب الجرحى —فهو يملك متجرا للدخان فياحدى القرى في الجنوب الغربي من فرنسا .. ثم زادوا على ذلك فقالوا : ان الفتاة تحيا حياة منظمة وهي مولعة بمشاهدة روايات السينما ، ولم يعرف عنها ان لها محبا عاشقا .. اما عمرها فتسعة عشر عاما .. وقد اثنىعليها ثناء طيبا بواب البيت .. اما زميلاتها في العمل فيحببنها حبا جما .. ومن ثم تبين الشيخ انها فتاة لها النصيب الاوفى من التوقير . ورأى فيها الفتاة التي تصلح كل الصلاحية لان تسعد اوقات فراغه وهو الرجل الذي اثقلته هموم الدولة واضنته متاعب العمل الضخم ..

ولا حاجة بنا ان نقص تفصيلات الخطوات التي اتخذها ليصل الى هدفه الذي يتشوق اليه فقد كان لديه من المهام ما يعوقه عن الاهتمام

شخصيا بهذه القضية فأوكل بها الى كاتم لسره . هو موضع ثقته فقد طالما نجح في اقناع الناخبين بانتخاب صاحبه .. وهو لذلك لا بد قادر على ان يشرح القضية امام فتاة نقية الثوب ولكنها فقيرة .. ومضى كاتم السر هذا الى بيت عمتها – واسمها (مدام سالادان) – وانبأها ان السيد (لى سيير) – وهو رجل يساير زمانه دائما – قد بدا يعني بالافلام السينمائية وانه بسبيل اخراج فيلم من الافلام (وهذا يرينا كيف يستطيع صاحب العقل المستنير ان يستفيد من الحقائق التي تمر بخاطر الشخص العادي والتي لا يلقي بالا اليها بحسبانها امرا تافها ..) . ثم مضى الرسول يقول : وقد اعجب مولاي بمظهر (الانسة ليزيت) يوم رآها تعرض الازياء كما اعجب بطريقة ارتدائها لملابسها فخطر بباله انها قد تصلح لتمثيل دور من ادوار رواية يريد ان يخرجها .. ودعا الرسول عمة الفتاة وابنة اخيها الى الغداء ليتم التعارف وليستطيع الشيخ ان يحكم هل لدى الفتاة القدرة على الظهور على الشاشة ذلك لانه في ريب من هذا .. وقالت العمة : سوف اتحدث الى الفتاة في هذا الشأن .. اما من ناحيتها هي فقد بدا ان الاقتراح جد معقول .. ولما عرض الاقتراح على الفتاة انبأتها عمتها بمقام الرجل وعظيم جاهه وسخائه هزت الفتاة كتفيها هزة تحقير وازدراء وقالت :يا له من ذكر عجوز من ذكور السمك ! قالت عمتها : وماذا في هذا اذا كان ذلك الذكر العجوز من ذكور السمك يهيء لك دورا تقومين بتمثيله ؟ وبعد اخذ ورد قالت العمة : ومهما يكن من شيء فان لنا ان ننعم بغداء فاخر هنيء ! وفوق ذلك كله فانك قد شببت عن الطوق .. وعدوت سن الطفولة ..! ويمضي بنا صاحب القصة الى (قصر مدريد) . وكل الناس يعرفون انه افخر مطعم في الدنيا جميعا ، ولم لا ؟ فالطعام متقن كل الاتقان . وموقعه يجعله مكانا يفيض بالسحر في امسية لطيفة النسمات من امسيات اوائل الصيف .. فلما وطئت قدما الفتاة هذا المكان توردت وجنتاها وشاعت فوق فمها ابتسامة فافتر ثغرها عن لآلىء منضدة ثم تمتمت قائلة : استطيع ان اقترض فستانا من المتجر الذي اعمل به ولم تمض الا ليال قلائل حتى كان كاتم السر يصحبهما في سيارة الى (غاب بولونيا) ، وبدت (ليزيت) فاتنة في فستانها البديع كما بدت عمتها سيدة وقورة في فستانها الحريري الاسود وفي قبعتها التي صنعتها (ليزيت) لهذه المناسبة .. وقدمهما كاتم السر الى سيده فحياهما اطيب تحية محتفظا بوقار رجل السياسة الذي يتظرف الى زوجة ناخب من الناخبين والى ابنته .. وهذه الخطة اوحى اليه بها ذكاؤه لكي يحسب المشاهدون في المطعم من عارفيه ان الامر لا يعود ان يكون كذلك .. ونمت الوليمة على خير حال . ولم تمض الا ايام قلائل حتى انتقلت (ليزيت) الى مسكن صغير انيق في مكان قريب من محل عملها وكذلك من مقر مجلس الشيوخ . وقد تولى تزيين ذلك المسكن فنان من ابرع الفنانين ، وابدى الشيخ رغبته في ان تستمر الفتاة في عملها . وراق له جدا ان يكون لديها بعض ما يشغلها اثناء الساعات التي تضطره مشاغله ان يعمل فيها ، وذلك انأى بالفتاة عن طريق الشر .. وقد عرف الشيخ ان الفراغ مفسدة وان المراة التي لا عمل لديها طوال النهار تنفق اكثر مما تنفق المراة العاملة .. انه يفكر في هذه الاشياء ، ذلك لانه رجل ذكي .. ولكن التبذير كان رذيلة من الرذائل ليس للفتاة عهد بها .. ان الشيخ كان محبا مغرما وكان سخيا . وكان مصدرا من مصادر رضائه ان (ليزيت) سرعان ما بدات تدخر فكانت تقتصد في النفقة . وكانت تشتري ملابسها بسعر الجملة .

وكانت في كل شهر ترسل مبلغا من المال الى ابيها البطل الذي كان يشتري به قطعا صغيرة من الارض .. وظلت الفتاة تحيا حياة تتسم بالهدوء والاعتدال .. وقد سر الشيخ اذ علم من البوابة (التي كان لها ولد تريد ان تراه موظفا في الحكومة) ان (ليزيت) لم يكن يزورها غير عمتها وغير واحدة او اثنتين من بنات المتجر .. ولم يكن الشيخ في يوم من الايام اكثر سعادة منه في تلك الاونة .. وقد سره كل السرور ان يرى انه حتى في هذه الدنيا فان العمل الصالح يلقى جزاءه ، فلو لم يكن – شفقة وحنانا منه – قد صحب زوجته الى معرض الازياء في اصيل ذلك اليوم ، وهو اليوم الذي كان فيه مجلس الشيوخ يناقش (قضية الدين الامريكي) لما سعد –لاول مرة– بمرأى تلك الفتاة الفاتنة .. تلك الفتاة التي كلما زادت معرفته لها زاد شغفا بها . فلقد كانت رفيقة رقيقة . تبعث في النفس السرور . وكانت مرحة ظريفة ، وكانت كيسة لطيفة . وكانت على قدر موفور من الحجى والذكاء . وكانت تحسن الانصات وهو يناقشها في مسائل العمل او في دنيا السياسة .. وكان يسكن اليها اذا اضناه التعب ، وكانت تبعث في نفسه البهجة اذا طاف به طائف من الغم . وكانت تفرح للقائه . وكانت تأسى لفراقه وغيابه .. وقد كانت تشعره بانه ليس حبيبها فقط بل انه فوق ذلك الصاحب والصديق .. وكانا احيانا يتعشيان معا في غرفتها .. وقال له اصحابه ان عمره قد عاد الى الشباب بمقدار عشرين عاما . وقد احس بهذه العودة .. من اجل ذلك كانت صدمة قاسية له بعد ان سارت الامور سيرا تحفه السعادة حوالي سنتين ، يوم عاد – على حين غفلة – من باريس في بكرة يوم من ايام الاحاد بعد زيارة قام بها لدائرته الانتخابية ، ويوم صعد الى مسكنها وفتح الباب بمفتاحه

الخاص وفي خاطره انه سوف يلقاها نائمة في سريرها ما دام اليوم يوم الراحة .. ولكنه اكتشف انها تتناول طعام الفطور في حجرة النوم وهي في خلوة مع فتى من الفتيان لم يره من قبل ابدا . وكان هذا الفتى يرتدي مباذل الشيخ الجديدة !!

ودهشت (ليزيت) لمرآه وانطلقت منها صيحة وهي تقول : من اي كهف من الكهوف وغور من الاغوار جئت ؟ ما كنت اترقب عودتك قبل صباح غد . فاجابها بطريقة آلية : لقد سقطت الوزارة وقد بعثوا الي يستدعونني وعرضوا علي ان اكون وزيرا للداخلية .. ولكن هذا القول كان على سبيل التعمية ليس غير .. ثم نظر الى الفتى نظرة تشف عن الغيظ الشديد وصرخ يقول : ومن يكون هذا الفتى ؟ وانفتح فمها الواسع وافترت شفتاها الحمراوان عن ابتسامة هي آية في الفتنة وغاية في الاغراء وقالت : انه عشيقي ! وصاح الشيخ بدوره : ـ او تظنينني غبيا .. اني اعرف انه عشيقك !

ـ فعلام السؤال اذن ؟.. وكان الشيخ رجلا واقعيا فمضى اليها ولطمها على الخد الايمن ثم على الخد الايسر .. وصرخت الفتاة وهي تقول يا لك من فظ غليظ القلب ! وقصد الشيخ ناحية الفتى الذي كان يشهد هذا المشهد العنيف الثائر بشيء من الحيرة ومد الشيخ ذراعه مشيرا ـ في حركة درامية ـ الى الباب . وقال اخرج !

لقد كان يخطر بالبال ان مثل تلك النظرة المسيطرة التي اعتادها الشيخ وهو يلوح بيديه لجمهور من دافعي الضرائب الغاضبين . او التي تعودها وهو يفرض سلطانه ـ وهو مقطب الجبين ـ على حملة الاسهم الذين تملكهم اليأس في احدى الجلسات السنوية .. لقد كان يخطر بالبال ان مثل تلك النظرة قد كانت خليقة بأن تجعل الفتى العاشق يسارع الى الباب . ولكنه على العكس من ذلك قد ظل ثابتا في مكانه ـ على ما كان به من حيرة وتردد ـ ثم القى الفتى بنظرة الى (ليزيت) وكأنه يستغيث بها ويستنجد ثم هز كتفيه هزة خفيفة .. وصاح الشيخ يقول : ماذا تنتظر ؟ اتريدني ان الجأ الى استعمال القوة ؟

قالت الفتاة : انه لا يستطيع ان يخرج في مباذله !

ـ انها ليست مباذله ! انها مباذلي انا ..!

ـ انه يريد ملابسه !

ونظر الشيخ حوله فالفى صنوفا والوانا من ملابس الرجال ملقاة على احد الكراسي في غير ترتيب .. والقى الشيخ نظرة ازدراء على الفتى وقال له : تستطيع ان تأخذ ملابسك .. فالتقط الفتى ملابسه وامسك بنعليه واسرع الى مغادرة الحجرة .. وكان الشيخ ممن اوتوا موهبة كبرى في فن الخطابة . ولم يحسن استعمال تلك الموهبة من قبل كما احسنها اليوم فقد صارح (ليزيت) برايه فيها وقال لها ان هذا الراي لا يشوبه الملق . وصور جحودها ونكرانها للجميل اسوأ تصوير ، ونثر كنانة الفاظه لينتقي انسب الصفات الفاضحة المشينة التي تليق ان تسمى بها . واستعان بجميع قوى السماء ليشهدها على ان الدنيا لم تشهد في يوم من الايام امرأة قابلت بالخديعة الكبرى والغش المبين ثقة رجل آمن بها واطمأن اليها ..

ومجمل القول ان الشيخ قال كل شيء انطقه به الغضب واملته عليه كبرياؤه الجريح . واوحت به اليه خيبة الامل .. ولم تحاول الفتاة ان تدافع عن نفسها . بل كانت تستمع الى كلماته في صمت ، وترنو ببصرها الى اسفل ، وهي تفتت ـ في حركة آلية ـ الرغيف الذي حال حضور الشيخ دون التهامه ..

والقى الشيخ نظرة غاضبة على صحفة الطعام ثم قال : لقد كنت مشوقا جدا الى ان تكوني اول من يسمع عن اخباري السارة التي جئت بها اليك فور وصولي من المحطة .. وكنت ارجو وآمل ا ناتناول الفطور معك وانت جالسة على حافة سريرك .. ثم اخذ يقول : الم تتناولي فطورك بعد ؟ سآمر لك به حالا ..

قالت : لست اريد شيئا ..

ـ انه محض هذيان وعبث .. ان واجبا عليك ان تحتفظي بعافيتك وانت بسبيل تحمل المسئولية الكبرى ..

واستدعت (ليزيت) الخادم وطلبت اليها ان تجيئها بقهوة ساخنة فلما جاءتها بها قدمتها الى الشيخ فلم يذقها ، ثم دهنت رغيفا بالزبد فهز كتفيه وبدا يأكل . وفى تلك الاونة نطق ببضع كلمات يصف بها خيانة المراة .. وظلت هي صامتة .. ثم قال الشيخ : ومهما يكن من شيء فأنه مما يذكر لك بالخير انه لم تحاولي الاعتذار عن فعلتك كما تفعل من اوتيت الوقاحة والصفاقة .. وانك لتعرفين اني لست بالرجل الذي يساء اليه ثم يظفر المسيء بالنجاة من العقاب .. وكما انـي اقبل روح السخاء والكرم عند ما يحسن الناس الي ، فاني لا اعرف الرحمة يوم ينالونني بالمساءة .. وفي اللحظة التي افرغ فيها من تناول قهوتي سوف ابارح هذا المكان الى غ ير رجعة .. وتنهدت الفتاة ، واستأنف الشيخ حديثه فقال : سانبئك الان بنبأ ما اعددته لك من مفاجأة ، فانا قد عقدت العزم على ان احتفل بالذكرى الثانية لقيام الصلة بيننا . وذلك بان اهدي اليك مقدارا من المال يكفيك للعيش عيشا يكفل من الاستقلال اذا الـم بي حادث من الحادثات .. قالت الفتاة ـ وقد بدا عليها الاكتئاب : وما مقدار ذلك المال ؟

ـ انه مليون فرنك .. وتنهدت الفتاة مرة اخرى .. وعلى حين غفلة وقع شيء على مؤخر راس الشيخ فنهض من فوره وصرخ يقول : ما هذا ؟ قالت الفتاة : ان الفتى يعيد

اليك مباذلك التي كان يرتديها ..! وكان الفتى في تلك اللحظة قد القى بالثياب فوق راس الشيخ واسرع بغلق الباب . وتخلص الشيخ من السراويل الحريرية التي طوقت جيده وقال : يا لها من طريقة سخيفة في ارجاع الثياب ! انه يبدو ان صاحبك فتى لم ينل من التهذيب شيئا .. فتمتمت (ليزيت) وهي تقول : بالطبع انه ليس له مكانتك المتمايزة .. وقال الشيخ : وهل له مثل ذكائي وعقلي ؟

— بالطبع لا !

— وهل غني هو ؟

— انه مفلس !

— اذن ما الذي اعجبت به فيه ؟

فابتسمت الفتاة وقالت : انه شرخ الشباب !!

وتدلى الشيخ ببصره الى صحفة الطعام وترقرقت في عينه دمعة . ثم جرت الى خده ثم الى القهوة التي كان يحتسيها . ونظرت اليه الفتاة نظرة اشفاق وقالت : يا صديقي المسكين ان المرء لا يستطيع ان يظفر بكل شيء في هذه الدنيا .!

قال الشيخ : لقد كنت اعرف اني لست بالفتى الذي يرفل في ثوب من غضارة الشباب ونضارته ولكني كنت اظن ان مكانتي بين الناس وان ثرائي الضخم وحيويتي القوية تقوم بعملية التعويض .. ان من النساء من يحببن رجالا في سن معينة ! ان هناك ممثلات شهيرات يحسبن ان لونا من الوان التشريف يضفي عليهن اذا اصبحن صديقات صغيرات لوزير من الوزراء .. اني لاعرف اني قد تبينت في وجهك صورة المنبت الذي خرجت منه . وانك على التحقيق لست اكثر من عارضة ازياء نقلتك انا من مسكن متواضع جدا الى حيث تقيمين . وان اتصالي بك كان فيه اعلاء لشانك وارتفاع بقدرك ..

قالت الفتاة : لقد انجبني ابوان فقيران — ما في ذلك شك — ولكنهما كانا من ذوي الشرف والنزاهة . فليس هناك من سبب يدعوني الى الخجل من اصل منبتي .. ولا حق لك في زجري وتأنيبي من اجل اني كنت اكسب قوت يومي من احترافي لعرض الازياء . ومن اني كنت اعيش في بيئة متواضعة ..

قال الشيخ : وهل تحبين هذا الفتى ؟

— نعم !

— ولا تحبينني انا ؟

— بل احبك انت ايضا .. اني احبكما معا . ولكن الحبين مختلفان . فانا احبك لانك رجل غاية في التمايز ولان حديثك مفيد ممتع .. وانا احبك لانك تحنو وتسخو .. وانا احب الفتى لان عينيه دعجاوان وشعره متماوج ولانه يجيد الرقص كل الاجادة .. والامران — كما ترى — طبيعيان وان كانا يبدوان جد مختلفين ..

قال الشيخ : اذ تعرفين ان رجلا في مثل مقامي الاجتماعي لا يستطيع ان يغدو بك الى حيث يرقص الراقصون . ولعله يوم يصبح فتاك في مثل سني سيكون شعر راسه اقل من شعري انا الان ..

قالت الفتاة : قد يكون هذا القول صحيحا . ولكني لا اظنه بالشيء المهم ..

— وماذا تقول عمتك — السيدة المحترمة الموقرة اذا سمعت بفعلتك التي فعلت ؟

— لن يكون هذا امرا مستغربا لديها !

— اتريدين ان تقولي ان السيدات الفضليات يؤيدنك في سيرتك هذه ؟ اذن فالى اي زمن ترجع هذه العلاقة ؟

— منذ ان خطوت الخطوة الاولى الى معرض الازياء .. فهو يعمل مندوبا متنقلا لمتجر كبير من متاجر الحرير في مدينة ليون . وجاءنا ذات يوم بالعينات .. واعجب كلانا بصاحبه وتبودلت النظرات ..

— ولكن هل كانت هناك عمتك لتدرأ اخطار المهالك التي تتعرض لها فتاة صغيرة مثلك في باريس ؟ لو انها كانت حاضرة امرك لما سمحت لك مطلقا بان تقوم اية صلة بينك وبين هذا الفتى ..

— لم اشاورها في الامر ..

— ان في عملك هذا ما يمضي بشعر ابيك الاشيب الى القبر .. الم يخطر ببالك ان ذلك البطل الجريح وما اداه لبلده من خدمات قد كوفىء بان اجيز له الاتجار في الدخان ؟ وهل نسيت ان « مصلحة التجارة في الدخان » تقع تحت اشرافي بوصفي وزيرا للداخلية ؟ واني لن اكون متجاوزا حقوقي اذا انا استرجعت الترخيص الممنوح لوالدك بسبب ما انت عليه من خلق ذميم ؟

— اعرف انك وانت السيد الماجد لن تاتي امرا شائنا كالذي وصفت..

— لا تخافي فلن انحدر يوما الى درك الانتقام من رجل استحق — بجهاده — تقدير بلاده بسبب ذنوب اقترفتها مخلوقة تحتم علي كرامتي ان ازدريها ..

ولم تتكلم (ليزيت) وساد بينهما الصمت .. ثم بدا الشيخ يحس بالاسى من اجل نفسه اكثر منه بالغضب عليها . واخذ يفكر — وقد تولاه تجاهل غريب لقلب المراة — في ان يثير في نفس الفتاة حاسة الندم . وذلك بتصوير نفسه في صورة شيء يستحق الاشفاق ويقول : ان من العسير على المرء ان ينتزع من نفسه عادة شب عليها .. ولقد يكون من اسباب العزاء لي ان اجيء الى هذا المكان كلما استطعت ان اختلس لحظة من اوقات مشاغلي المتعددة . فهل لك ان تأسى من اجلي قليلا يا ليزيت ؟

— بالطبع ..

فتنهد الشيخ تنهيدة عميقة وقال: ما كنت اظنك قادرة على كل هذا الخداع ..

وغاصت الفتاة في تفكير عميق وتمتمت بقولها : انه الخداع الذي

يغيظ .. أن الرجال – من هـذه الناحية – يثيرون السخرية .. انهم لا يستطيعون ان يغتفروا ذنب مـن يخدعهم ويضحك منهم . ذلك لانهم في غرورهم قد اوفوا على الغاية .. وذلك لانهم يضفون اهتماما بالغا على اشياء لا قيمة لها ..

– هل تسمينها اشياء لا قيمة لها ان اراك تتناولين الفطور مع فتـى من الفتيان يرتدي ملابسي ؟

– لو كان هو زوجي وكنت انت عشيقي لرايت انت هذا امرا طبيعيا لا تشوبه شائبة ..

– هذا امر واضح ذلك لانـي ساعتئذ اكون لا محالة خادعـه . ويكون شرفي قد سلم من الاذى ..

– في كلمة موجزة اقول ان ليس علي الا ان اتزوجه لاصحح الموقف تصحيحا كاملا ..

وظل الشيخ برهة لا يفهم شيئا وقد غم عليه الامر . ثم صحا ذكاؤه فادرك معنى قولها . ثم القى عليها نظرة سريعة .. وبرقت عيناها الفاتنتان بريقا طالما فتن هو بسحره. وبدت فوق فمها الواسع شبهة ابتسامة ماكرة ..

وقال الشيخ : لا تنسي انني بوصفي عضوا في مجلس الشيوخ وبحكم جميع تقاليد الحكم امثل دعامة من الدعائم المسئولة عن صون الاداب ورعاية الخلق الكريم ..

– وهل ترى في هذا الامر عبئا ثقيلا جدا عليك ؟

– مطلقا .. ثم سألها : وهل يود الفتى الزواج منك ؟

– انه يعبدني . ولذلك فهو بالطبع يريد ان يتزوجني . واذا انا قلت له اني املك صداقا مقداره مليون فرنك فيكون قد بلغ قاصية المنى ..

والقى عليها الشيخ نظرة اخرى ثم قال : اذا كان الفتى يعبدك فلا بد له – دون ان يفكر في المال – من اين يكون الى جانبك دائما ..

– الم اقل لك انه تاجر متجول وانه لا يستطيع المجيء الى باريس الا في نهاية الاسبوع ؟

– انه بالطبع حصان مختلف اللون والصبغة . وهو قد يرضيه بالطبع أن يعرف اني – في فترة تغيبه – ساظل ارقبك بعين ساهره ..

– هذا امر يبعث على الرضا البالغ .. ولكي تجعل الحديث يسير في سهولة ويسر نهضت من مجلسها وجلست جلسة مريحة فوق ركبتي الشيخ فأمسك بيديها وضغط عليها ضغطا رفيقا ..

– اني مغرم بك جداً يا (ليزيت) واني لاود ان لا تخطئي التقدير . فهل انت واثقة انه سوف يسعدك ؟

– اظن ذلك اكبر الظن ..

– سوف اقوم بالتحقيقات المناسبة ذلك لاني لا ارضى ابدا ان تتزوجي رجلا لا يكون مثاليا في خلقه . وصونا لكرامتنا جميعا ينبغي لنا ان نستوثق من حقيقة الشاب الذي نعد انفسنا لاستقباله للعيش بيننا ..

ولم تبد (ليزيت) اعتراضا اذ كانت تعرف ان الشيخ يريد ان تتم الامور وفق نظام مرتب منسق . وهو الان يهيء نفسه لتركها .

وقال الشيخ وهو يودعها : هناك شيء اخر اريد ان تعرفيه وهو انك اذا تزوجت فاني اصر على ان تتخلى عن عملك .. ان الزوجة مكانها البيت

قالت الفتاة : سأكون يا حبيبي عند رغبتك ..!

وكانت نتائج البحث مرضية . وتم الزواج في صباح يوم سبت فور اتمام الامور الشكلية .. وكان شاهدا العقد الشيخ وعمة الفتاة . وكان العريس فتى نحيلا له عينان دعجاوان وشعر متماوج يصففه الى وراء .. وهو يبدو وكأنه لاعب من لاعبي كرة التنس ..

وخطب في حفل القران عمدة البلد خطبة حاول فيها ان يكون خطيبا بارعا وذلك تكريما لوزير الداخلية الذي شرف الحفل بحضوره وذلك وفقا للتقاليد الفرنسية .. وكان العمدة ممن يمتون الى الادب بصلة فاعاد الى الذاكرة في كلمات موجزة سير المحبين المشهورين الذين ورد ذكرهم في القصص من امثال «روميو وجولييت» . « وبول وفرجيني » . ثم هنأ الزوجين السعيدين بالشرف الذي أولاهما اياه وزير الداخلية بان رضي ان يكون شاهدا من شهود العقد وقال : ان هـذا العمـل من جانب الشيخ الموقر يبين لنا انه يكبر من شأن الزواج المبكر تثبيتا لاستقرار الاسرة . وتوكيدا للرغبة في انتاج النسل المؤدي الى زيادة القوة التي تعمل على اسعاد فرنسا ..

ثم تناول فطور الزواج في مطعم (قصر مدريد) الذي يحتفظ له الشيخ بذكريات عاطفية .. وكانت هديته للعروسين – وهو صاحب مصنع السيارات – سيارة ذات مقعدين من صنع مصنعه ..

ونهضت (ليزيت) فقبلت عمتها ثم قبلت الشيخ وهمست في اذنه تقول : سأكون في انتظارك في اصيل يوم الاثنين ..

– سأكون هناك ..

وامتطى العروسان سيارتهما . وظل الشيخ وظلت عمة الفتاة برهة ينظران الى العربة الصغيرة الصفراء .. وقالت العمة : اني اكون سعيدة مغتبطة ما دام يسعدها ..

وقال الشيخ – وهو يضغط على مخارج الحروف – اذا لم يجعلها سعيدة فسوف يكون لي معه حساب.

وودع الشيخ العمة وهو يقول : الى لقاء قريب يا سيدتي العزيزة . سوف تجدين الاوتوبيس في الشارع المجاور .. ثم امتطى عربته وتنهد تنهيدة الرضا وقد اخذ يفكر في شئون الدولة التي تترقب عنايته واهتمامه .. وكان واضحا ان من الخير له ان تكون محظيته امرأة محترمة ذات زوج بدلا من ان تكون عارضة ازياء في متجر من متاجر الازياء ..

القاهرة — مبارك ابراهيم



القاموس الاسلامي

وضع احمد عطية الله ـ ٦٦٨ صفحة ـ مكتبة النهضة بالقاهرة ـ مطبعة(؟)

اعتقد ان النهضة الفكرية في العالم العربي اليوم احوج ما تكون الى المراجع الدقيقة السريعة ، وذلك بعد ان تعددت مطالب الحياة وتنوعت اسبابها وتشعبت بحيث لم يعد هناك من الوقت ما يسمح للكثيرين بمراجعة الاسفار المطولة ، فنحن نعيش في عصر السرعة ، بل السرعة الخاطفة ..

وقد فهم الاستاذ احمد عطية الله هذا الفرض منذ سنوات طويلة ، منذ عام ١٩٤١ ، وهو منذ ذلك التاريخ الى اليوم يعمل في هذا المجال على نحو يلفت النظر حقا ، ويدفع الباحث الى المراجعة والانتباه . ففي خلال نيف وعشرين عاما اصدر هذا الباحث خمسة قواميس متنوعة الاحجام والموضوعات ، كان هدفه منها تعريب المعلومات المختلفة الى الباحث المتعجل والى الصحفيين والكتاب بنوع خاص في ميادين متعددة في مجال السياسة والوطنية والاسلاميات والمعلومات العامة .

ولقد عمل في هذا الميدان منذ وقت بعيد اعلام لا تستطيع ان ننسى جهدهم وفي مقدمتهم البستاني وفريد وجدي ، ودائرة البستاني لما تكتمل حتى اليوم والدكتور فؤاد افرام البستاني قد اخذ على نفسه عهدا باتمامها وما اظن ان جديدا قد اضيف حتى الان ، وهي بالاضافة الى دائرة فريد وجدي التي ظهرت قبل الثلاثيات من هذا القرن ، قد بعدتا عن مجال المعلومات المديدة التي تتجدد كل يوم في كل مجال خاصة مجال العلم وفتوح الكشوف والاختراعات ، ولذلك فاننا نتلفت من حولنا فلا نجد الا مشروعات لدوائر معارف وموسوعات لعديد عنها ، عن هيئات حكومية في مختلف انحاء العالم العربي ، ولكنا ما زلنا نؤمن بالجهد الفردي ، اذا صدقت النية وتوفرت الامكانيات والاستاذ عطية الله رجل دؤوب منظم ، اتيح له منذ مطالع حياته ان يسافر الى اوروبا وان يقضي بها سنوات طويلة ليحصل على عديد من الدرجات في التاريخ وعلم النفس من جامعة لندن ، ثم هو منذ عاد الى مصر يواصل العمل في مجالاته الفكرية المختلفة ، ففي الصحافة والكتابة والتاليف له عشرات من الكتب الانيقة المخدومة ، وله سلسلة من سلاسل الاعلام قدم عشرات من الشخصيات وادى اهتماما كبيرا للشباب والاطفال فقدم ٣٢ كتابا وقصة تاليف وترجمة وطبع مجلة للاطفال ما تزال حتى الان مرجعا لكل من يكتبون في هذا الفن ، وهو واحد من ثلاثة قدموا هذا الفن الى الادب العربي : كامل كيلاني واحمد عطية الله وسعيد العريان .. وله مولفات في علم النفس والتربية درس فيها نظريات متعددة وهي تقويم التعليم ، والذاكرة والنسيان ، وسيكولوجية الضحك ، والطفل الشاذ ، وله مؤلفات في الرحلات . وكتب عن لندن وبرلين وله : يوم في باريس ، وعلى الدانوب وحدث في باريس ، فضلا عن تراجمه عن محمد عليه السلام ، والسلطان عبد العزيز ، وهارون الرشيد ، وصلاح الدين الايوبي ، وعبد اللهنديم . وفي مجال المؤلفات التاريخية : له الهاربون ، والجيش الفاتح ، والحقائق والوثائق عن ثورة مصر ..

ويعنينا هنا بصفة خاصة ان نقدم هذا الباحث في مجاله الكبير ، مجال الموسوعات وذلك بمناسبة ظهور موسوعته الجديدة القاموس الاسلامي التي ضمنها تعريفا بمصطلحات الفكر الاسلامي ومعالم الحضارة الاسلامية وتاريخ الدول الاسلامية وتراجم الاعلام والمشاهير مع التعريف باشهر المؤلفات في المكتبة العربية والاسلامية .

ويضم هذا القسم الاول اكثر من الفي مادة ، والقسم الثاني في الطريق الى قرائه ..

ونحن نعلم ان هناك دائرة المعارف الاسلامية التي ما تزال لجنتها في القاهرة منذ سنة ١٩٣٢ تواصل ترجمتها ولما تصل بعد الى حرف (ش) في جهد مشكور ولكنه طويل ، ربما كان مضيعا حيث ظهرت دوائر معارف اسلامية جديدة ، فضلا عما اخذ عليها من نقص واخطاء وانحرافات .

من اجل هذا كانت الحاجة ماسة الى موسوعة مفهرسة عن الفكر الاسلامي والحضارة الاسلامية للتعريف بهذا التراث الانساني الذي عاش من عمر الزمان اربعة عشر قرنا ، ويشير الاستاذ عطية الله الى المحاولات التي سبقته ، فشكرها ، ولكنه لا يستطيع ان ينكر ان بعضها كان قاصرا عن تحقيق روح الفرص وجوهر الغاية التي تستهدفها موسوعة اسلامية تعرف وتحقق وتحدد للقارىء مدلولات ومعاني الاسماء والمصطلحات التي يلتقي بها في دراساته وقراءاته ، فاذا قيل ان هناك مؤلفات كثيرة في هذا المجال كان من رأي صاحب الموسوعة : ان الفائدة لا تتهيأ منها الا للخاصة من القراء المتمكنين من هذه الدراسات فضلا عن ان امهات هذه المؤلفات قد وضعت في عصر غير هذا العصر فهي تحتاج الى اعادة نظر في صياغها والى تجديد مادتها ، وعنده ان اشد ما يؤخذ على هذه المؤلفات المعجمية انها لا تحيط بشتى نواحي التراث الاسلامي ، فهي اما ان تكون معنية بالمادة اللغوية او الفقهية او العقائدية ، واما ان تكون معنية بالتاريخ الاسلامي الى عصر المؤلف ، او بتراجم اعلام الفقهاء والعلماء والادباء ورجال الحكم والحرب والسياسة ، او باسماء الامكنة وما اليها . وقد راجع المؤلف كل الاعمال التي سبقته وحاول ان يكون عمله جديدا ونافعا ، وكان من رأيه ان الحاجة ملحة الى معجم تتسع مادته بحيث يشمل مصطلحات التراث الاسلامي من اعلام ومسميات ويضيق حيزه بحيث لا تتضاعف مجلداته الى الحد الذي يحرم كثيرين من الحصول عليه او يثقل عليهم استخدامه ، ومن هنا جاء هذا القاموس الذي عنى بمختلف اثار العالم الاسلامي من اقصى المشرق الى اقصى المغرب ، جغرافية واعلاما وحضارة وتاريخا ..

مع الرسوم والصور والخرائط المناسبة ، وكان عمل المؤلف السابق في قواميسه : القاموس السياسي ودائرة المعارف الحديثة واضحا ، فقد تمرس بهذا اللون من العمل واجاده وبلغ فيه مبلغ الثقة والتقدير من مختلف الباحثين .

فاذا رجعنا اليوم الى (القاموس السياسي) وهو اول اعماله في هذا الميدان وجدنا المؤلف دقيق العناية بمختلف حاجات الباحث في ميدان الحرب او السياسة او الاقتصاد ، فاذا وجد الحاجة ماسة لقاموسه اعاد طبعه واضاف اليه (خلال الحرب العالمية ١٩٤٣) قسما جديدا تحت عنوان (قاموس الشؤون الجارية) وقد جعله منفصلا ، حتى اذا ما استقرت شئون العالم بعد ذلك مزجه مع الاقسام الاخرى، وتلك حيطة نافعة حتى لا تتاثر حقائق التاريخ الرئيسية باحداث الحاضر المتذبذبة .

وفي قاموسه هذا يقدم رؤساء الدول وانظمة الحكم وعواصم العالم وتعداد سكانها ومدن العالم الكبرى والعملة في العالم وميزانيات الدول ووارداتها وصادراتها والديون الدولية والاساطيل التجارية ومواصلات العالم البحرية ونسبة المواليد والوفيات في العالم وانتاج العالم للمواد الغذائية ويوجه للعالم العربي عناية خاصة . ويضم الى ذلك اطلسا سياسيا مزودا بالخرائط .

فاذا انتقلنا الى دائرة المعارف الحديثة وجدنا عملا انيقا مرتبا ، فيه طابع العلماء وطابع رجال الفن معا ، فالاستاذ عطية الله يضع في تقديره ان هذا العمل سينتفع به الصحفيون والادباء والمفكرون وهيئات التدريس في الجامعات والمدارس ولذلك فهو يزوده بكل ما يستطيع من صور ورسوم وخرائط ، وقد اعانه على هذا العمل انه كان مديرا لمتحف التعليم ، فترة من الزمن ، مما هيأ له جوا علميا في العمل لم يتوافر له من بعد عندما عمل مديرا لمكتب البعثات التعليمية في النمسا وملحقا ثقافيا بالسفارة المصرية بفيينا ولكنه كان في خلال هذه المراحل من حياته العملية الرجل المشهود له بالخبرة والبراعة واخشى ان اقول الصراحة في اداء الواجب كاملا وعلى النحو الذي يحقق احسن النتائج، ولقد اتيح لنا ان نعمل معا في مجال المطبوعات الفكرية والسياسية سنوات ١٩٥٣ و١٩٥٤ وفي برنامج صوت الشباب في الاذاعة المصرية ، فكان مثلا من أمثلة العالم المدقق الذي لا يقبل شيئا الا بعد مراجعة دقيقة وفحص علمي واف ، وما زلت اذكر كيف كان يعمل هو الساعات الطويلة في مراجعات طويلة حتى يخرج العمل اشد ما يكون كمالا وقوة، ولعل هذا يرجع الى طابع الصعيد وطابع اسوان بالذات . فكذلك عرف العقاد جاره وابن بلده ، فاذا اضفنا الى ذلك كفاحه المتصل في مجال العلم سنوات طويلة ، واتصالاته باوساط الباحثين والعلماء في جامع لندن ، وعمله في مجال الصحافة المصرية والتعليم ومراقبة الصحافة وادارة الشباب ومراقبات نشر الثقافة والمطبوعات ومتحف التعليم خلال حياة خصبة ما تزال عامرة بالعمل الدائب ، قدرنا هذه العقلية الموسوعية التي تاخذ خطا واضحا ما احوجنا الى ان نضاعفه .

ولقد عنى الاستاذ عطية الله بالموسوعة الاسلامية منذ ظهر المؤتمر الاسلامي وزاد من اهتمامه بها عندما عين مديرا لمعهد الدراسات الاسلامية بالقاهرة ، وما زلنا ننتظر منه اعادة طبع دائرة المعارف الحديثة وقد مضى عليها اثنا عشر عاما ، وقد احتفلنا بها في جريدة الزمان بكلمة تحية في ٤ ابريل ١٩٥٢ جاء فيها : « عكف الاستاذ عطية الله منذ وقت طويل على دراسة دوائر المعارف الفرنسية والانجليزية والامريكية واستخلص من لبابها الذي صدر في عشرات الاجزاء عملا قويا نافعا ، اضاف اليه من بلادنا وتراثنا الشيء الكثير . ولقد كنت ازور الاستاذ عطية الله فاجده في اي وقت ، من الصباح او المساء عاكفا على مراجعه الضخمة يحاورها ويستخلص منها بنوده التي ضمنها دائرة معارفه فلم يذق النوم عاما كاملا ، فادهشني هذا الانكباب وهذا التجرد لبحثه ، وهذا الانصراف عن بنيه واولاده ومشاغله الخاصة واستهانته بامر راحته في سبيل العمل وقد استطاع بذلك ان يقدم خدمة جليلة للفكر الحديث ما اظن ان جيلنا المعاصر يستطيع ان يقدرها حق قدرها او يجزيه بها » .

واليوم وبعد ١٤ عاما أعود فاقول ان احمد عطية الله يكفيه انه وضع اسمه بين الخالدين من مؤلفي الموسوعات وانه الان اذ يقال (البستاني ووجدي وعطية الله) في العالم العربي ليكفي ، اما الجزاء المادي فما اظنه يتطلع اليه ولو كان من ربائبه لوجه جهده الى المجالات التي تدر الالوف وهو القادر على ان يحسن كل ما يعمل ، في اي ميدان .

القاهرة — انور الجندي

الحياة الادبية في ليبيا (الشعر)

تاليف الدكتور محمد طه الحاجري – ١٨٠ صفحة – حجم كبير – منشورات معهد الدراسات العربية العالية بالقاهرة – مطابع دار النشر للجامعات المصرية

الاستاذ الدكتور محمد طه الحاجري استاذ الادب العربي بجامعة الاسكندرية قضى بضع سنوات في الجامعة الليبية كاستاذ بكلية الاداب بها وقد اتاحت له هذه السنوات فرصة دراسة الحياة الادبية في ليبيا ماضيها وحاضرها عن قرب كما يسرت له مهمة الاطلاع على كثير من المراجع والمؤلفات التي سجلت جوانب مختلفة من هذه الحياة فلا غرو حينما يعود الى ارض الوطن ويدعى الى القاء محاضرات على طلبة معهد الدراسات العربية التابع لجامعة الدول العربية بالقاهرة ان يكون موضوعه المفضل (الحياة الادبية في ليبيا – الشعر) . ولعل الاستاذ الدكتور يعمد في سنوات قادمة الى اعداد دراسة اخرى عن النثر وفاء بحق هذا الفرع الهام من فروع الادب ووفاء بحق الحياة الادبية في ليبيا ذاتها .

يبدأ الكتاب بمقدمة قصيرة يقرر فيها المؤلف حقيقة هامة قد تبدو غريبة لدى الكثيرين (يعتبر قيام السنوسية في ليبيا مبدأ تاريخها الحديث – وكذلك هو مبدأ الحياة الادبية الحديثة فيها ...)

ويقسم المؤلف هذه الحياة الى مراحل ثلاث :

الاولى : مرحلة العهد السنوسي الاول منذ قيام السنوسية حتى الغزو الايطالي .

الثانية : مرحلة الاستعمار الايطالي .

الثالثة : مرحلة ما بعد هذا الاستعمار منذ سقوط الحكم الايطالي حتى اليوم .

ووجه الغرابة فيما تقدم أن تاريخ الحركة السنوسية يكاد يكون مجهولا في العالم العربي الا من بعض مواقف خاصة بكفاح الاستعمار الايطالي في فترة ما قبل الحربين العالمية الاولى والثانية ويشعر المؤلف بمدى الغموض الذي يحيط بهذه الدعوة وعلى الاخص في مراحلها الاولى فيجلو ما غمض من ذلك التاريخ بالقدر الذي يسمح به منهج الدراسة الادبية .

ففي القسم الاول من الكتاب وهو الذي خصصه المؤلف للمرحلة الاولى يعرفك المؤلف بصاحب الدعوة السنوسية السيد محمد بن علي السنوسي ويبين لك كيف ان حياته تقع في اربع مراحل تبدأ في مسقط راسه ومرباه ومنشئه في الجزائر والمغرب وتنتهي في ليبيا وتنتقل فيما بين ذلك بين بلاد السودان والمغرب الادنى ومصر والحجاز واليمن .

وبعد ان ينتهي المؤلف من عرض حياة صاحب الدعوة ومنشئها يقف قليلا ليقرر ان (النهضة الحديثة التي اتيحت للشعوب الاسلامية في القرن التاسع عشر كانت تقوم على عاملين رئيسيين: احدهما الاتجاه نحو القديم ومراجعته واحياؤه والاخر تأثر بالحياة الاوروبية في مناهج تفكيرها وانماط سلوكها وكان أمر هذين العاملين متفاوتا بين الشعوب كما كان متفاوتا في ميادين النهضة المختلفة بالقياس الى الشعب الواحد) ..

ويتساءل بعد ذلك ؟ ما هو موقف النهضة الليبية من هذين العاملين في نشأتها وتطورها ؟ ويجيب على ذلك بأن ارتباط هذه النهضة بالبداوة كان من الطبيعي ان ينأى بها عن العامل الثاني وانها انما كانت تقوم على احياء القديم وذلك بالرجوع الى المناهل الدينية الاولى والمصادر الاصيلة للاسلام ومن خلال القسم الاول للكتاب تعرف انه كان في ليبيا اكثر من بيئة علمية كان فيها الزوايا التي انشأتها السنوسية وجعلت منها مراكز دينية وثقافية وكان فيها الحلقات التي تنعقد في المساجد تلقى فيها دروس الفقه وتقرأ فيها كتب التفسير والحديث وما الى ذلك وكان فيها المدارس النظامية التي انشئت في العهد التركي الاخير كما كان فيها الى

جانب ذلك بعض المدارس التي انشأها الايطاليون في بعض مدن طرابلس.

ويتنقل معك المؤلف بعد ذلك في رياض الشعر الليبي في مراحل نهضته المختلفة وهو اساسا موضوع البحث ويبدأ بقصيدة منسوبة الى مؤسس النهضة نفسه السيد محمد بن علي .

يقول في مطلعها :

الا انما الدنيا غضارة أيكة   اذا اخضر منها جانب جف جانب
هي الدار : ما الامال الا فجائع   علينا ولا اللذات الا المعاطب
وما هذه الاولاد والمال والمنى   لدينا ولا الامال (؟) الا المصائب
فلا تكتحل عيناك يوما بعبرة   على ذاهب منها فانك ذاهب

ومن شعراء المرحلة الاولى الذين عاصروا صاحب الدعوة فالح الظاهري الذي قدم الحجاز مع استاذه سنة ١٨٤٦ م ويشير المؤلف الى ان معظم شعر فالح قد ضاع شانه في ذلك شان غيره من اثار هذه المرحلة لكن ما بقي منه يدل على شاعرية صادقة وقدرة على صياغة الشعر صياغة عربية جزلة ويدلل المؤلف على ذلك بابيات من قصيدة له في الحنين بعث بها من الحجاز الى ليبيا .

سرى طيفكم ليلا فما تاه في المسرى   على بعد ما بين الجغابيب والحمر
عجبت له انى اهتدى لي وبيننا   مهامه ينبو الوهم عن جعلها مسرى
احبابنا والله ما غير النوى   وداوى ولا اخلت بلادي لكم ذكرا
اهش لريح الجربيباء اذا سرت   وان اضرمت في القلب من ناركم جمرا

ويبدأ المؤلف الحديث عن المرحلة الثانية بسطور باكية دامية عن الاعتداء الوحشي الذي وقع من ايطاليا على الشعب الليبي في خريف سنة ١٩١١ ويرد ضعف الحياة الادبية في هذه المرحلة ـ مرحلة الاستعمار الايطالي ، الى ان الشاعر او الاديب عامة كان بين امرين اما ان يتملق السلطات الاستعمارية فيقول الشعر في تمجيدها والاشادة بها او يدبج الفصول في تبرير اخطائها واما ان يسكت سكوت الصبي العاجز حتى لا يعرف عنه انه شاعر او اديب وحتى لا يتعرض لهذه السلطات وتهدده في حياته او ارزاقه .

وقد اضطر بعض شعراء العصر تحت ضغط الظروف الى مدح الدولة الباغية وزعيمها موسوليني لكن الشاعر منهم ما يكاد يخلو الى نفسه حتى يحس بوخز الضمير يقض مضجعه فيبرر مسلكه بانه انما كان يداهن ويمالىء لانه لا يملك الا ذلك ولكن قلبه يمتلىء حقدا وكراهية لجلاديه .

والعجيب ان هذا الصراع الذي دار في اعماق كثير من الشعراء في ذلك الوقت ظهر بصورة جلية في بعض قصائدهم ومن ذلك قصيدة للشاعر محمد الهنقاري يقول فيها :

تكلفت مدحا للئيم ولم اكن   مواليه والله يدري دخائلي
مدحت لئيم النفس لا عن محبة   ولكنه المبغوض عند الاماثل
ركبت الذي يخفى على الناس سره   وتفسيره قول لبعض الافاضل
اذا ما يد عزت عليك تنالها   بقطع فقبلها وذا فعل عاقل
ركبت ذنوبا في مديحي وربما   اجاب اليها توبتي عن رسائلي
فما قلت قولا من ضميري وانما   يكلفني الخنزير شر الخصائل
يكلفني ان تمدح الشاة ذئبها   وتشكره ان ناءها بالمخاتل
الا قبح الله الوظيفة انها   تكلفني اطراء اهل الرذائل

وفي بداية الحديث عن المرحلة الثالثة وهي المرحلة التي تلت هزيمة الايطاليين يبرز المؤلف اهمية الدور الذي لعبته جمعية عمر المختار التي انشئت في مدينة بنغازي في شهر ابريل ١٩٤٣ وكانت تضم مجموعة من الشبان المتحمسين العائدين من المهجر والذين شاركوا في الحياة المصرية بجوانبها المختلفة سياسية وثقافية ويتوثبون نحو مجد سياسي وادبي ويحققونه لبلدهم ومجموعة من الشبان الذين عانوا الاستعمار .

ويتحدث المؤلف عن هذه الجمعية فيقول (لا يملك دارس الحياة الادبية في ليبيا في هذه الفترة ان يغفل هذه الجمعية فان تاريخ ليبيا في فترة الانتقال هذه مرتبط بها اوثق الارتباط لا في الناحية السياسية فحسب بل في الناحية الثقافية عامة والادبية خاصة) ،

ويلخص بعد ذلك نشاطها الثقافي في اصول ثلاثة ؟ التعليم ... الاندية .. الصحافة ويقسم المؤلف شعراء هذه المرحلة فريقين فريق الشعراء الشيوخ الذين يطلق عليهم الشعراء المخضرمين اذ كانوا قد ادركوا العهدين وفريق الشعراء الشبان الذين ظهرت مواهبهم في هذه الفترة وان كانت نشأتهم في العهد الايطالي .

ومن شعر الشاعر رفيق المهدوي وهو احد الشعراء المخضرمين اورد المؤلف قصيدة وطنية له يقول في مطلعها :

للشعب في هذا الزمان ارادة   تملي الحقوق وتصدر الاحكاما
صارت امور الناس شورى بينهم   لا يملك الباغي لهم ارغاما

ومن الشعراء الشبان الذين لمعوا في هذه الفترة ابراهيم اوسطى عمر ويقول المؤلف عنه (قد لا يكون هناك غيره اتيح له ان يغالب الامية والجهالة فغلبهما وصار من بعد شاعرا فيكون ابراهيم هذا نمطا على حدة وطرازا في هذه الفترة) .

ومن قصيدة انسانية لهذا الشاعر نظمها وهو في مخيم الجيش الليبي في وادي النطرون هذه الابيات ..

ايها البلبل ما هذا الجمود   اين تغريدك بين الشجر
ابعث الالحان في هذا الوجود   واملأ الدنيا نشيدا وسمر
لا تطق هما لحرب او سلام   وارك الدنيا باهليها تموج
في عراك دائم او في خصام   تحت سطح البحر او فوق المروج
سيمرون كما مر الكرام   في طريق ما لهم منه عروج
اهن نفسي هل ترى الخير يسود   فيه عدل الله ما بين البشر
او يسود الشر والدنيا تعود   لحياة ليس فيها مستقر

وبعد فاذا كانت اقامة الدكتور الحاجري بليبيا قد اتاحت له فرصة نادرة للاتصال باسباب النهضة ومراجعها كما اشرنا الى ذلك في بداية المقال فان القارىء يشعر بعد ان يفرغ من قراءة الحياة الادبية في ليبيا ... ان مؤلفه قد بذل جهدا ضخما في سبيل الوصول الى مادة هذا الكتاب ولم شعث الاثار المتناثرة لشعراء هذه الفترة وانه بذل ايضا جهدا اكاديميا صادقا ليخرج من هذه الاثار بدراسة علمية متكاملة تؤرخ لفترة هامة من تاريخ الادب العربي المعاصر وتستحق ان تاخذ مكانها عن جدارة بين المؤلفات الادبية الجادة في المكتبة العربية الحديثة .

فوزي عبد القادر الميلادي

الاسكندرية

كتاب الانس

جمع : سمير شيخاني ـ ٦٢٢ صفحة ـ دار السمير للطباعة والنشر بيروت ـ مطبعة (؟)

كان العرب الاقدمون يعرفون الاديب انه ذاك الذي « يلم من كل فن بطرف » . والاديب في مفهوم العربي لا يقتصر على المحترف ، وانما هو وصف لكل انسان يجمع له من الصفات النفسية وفنون القول وضروب المعرفة ، ما يجعله قريبا الى القلوب ، محببا الى النفوس ، كيس التصرف سليم الذوق . وبذلك يفرض في كل الناس بهذا المعنى ان يكونوا ادباء .

ولكن ... كيف يتاح لهم ان يكونوا كذلك ؟

ـ الجواب عن هذا السؤال واضح ايضا لدى الاقدمين : بالمعاشرة والمطالعة . ان الذين يعاشرون الادباء ، ويتاملون وجوه التصرف لديهم ، وياخذون عنهم طرائق التعبير والحديث ، ويتاثرون بردود الفعل عندهم في تلقي الاحداث والرد عليها ، يصبحون مع الزمن كعشرائهم يقبلون على كل فن ، وياخذون منه بطرف .

والمعاشرة كالمطالعة . هذي تعدي بالفكر ، فيما تبث من اخيلة وصور واحاسيس ، وتلك تعدي بمجرد حصولها بين اديب وغيره ...

وقد انتهى الاستاذ سمير شيخاني من خلال معاشراته ومطالعاته معا، الى « تشخيص » حي للاديب الذواقة، واصبح « الماما » بشتى الفنون الادبية من الشمول والسعة بحيث لا يقوى بعد على الاحتفاظ بما قرأ، وسمع، ولاحظ، واشتد به التوق الى مشاركة غيره باطايب ما قرأ وسمع ولاحظ، فاخرج هذا الكتاب الضخم الذي يعين كل انسان، كائنا من كان، على ان يكون اديبا بالمعنى العربي القديم.

وشأن سمير في هذا الكتاب ((كتاب الانس))، شأن واحدنا حين يسمع نكتة طريفة لا يقر له قرار ! لااذا هو نقلها الى غيره، او هو شأن بحاثة يقع - هنا في مطالعاته - على اشياء جديدة، ومعان بديعة، وصور حلوة، فلا يهدأ الا حين يشارك غيره في اكتشافاته، وعرض ما انتهى اليه من مغامراته في عوالم الادب، ومجاهل النفس، وآفاق الطلاوة وهو يعرض ذلك كله على « بساط الانس »، اي بشكل مرح، مفرح، ممتع.

وسمير في هذا الموقف الذي يتخذه هنا، في هذا الكتاب، يعبر عن اصالة عربية وعلى نحو عفوي، كله سماحة وطواعية.

وتفسير ذلك ان احدى الشمائل او المزايا المرموقة في سلم القيم العربية القديمة انما هي أن يكون الانسان « اريحيا ». والاريحية واحدة من هذه الكلمات التي لا تترجم الى لغات الفرنجة، ويتأدى بها معناها على وجه الدقة، فهي تفيد بالضبط « مشاركة الاخرين الانس »، وتدفع صاحبها على تقدير الجمال في شتى انواعه ومظاهره، وحمل الاخرين ايضا على ذلك التقدير. والاريحي من الناس هو الذي يهش لمواطن الجمال والخلق الجميل، ويبذل من ذاته لادخال السرور على القلوب.

وهذه الاريحية التي يتصف بها الخلق العربي الاصيل، تميل بصاحبها الى الاهتمام بالنكتة، والنادرة، واللفتة الذهنية البارعة، والكلمة البليغة، وتجعله مفتونا بالفكاهة في شتى صورها والوانها. وقد اوضح الاستاذ رئيف خوري هذا الجانب في مظاهره الادبية، اذ كتب يقول في مقدمة هذا الكتاب الممتع : « ... ففكرة الادب عند العرب ما انفصلت في يوم عن عنصر الظرف، ولطف النكتة، وبراعة النادرة. وكان شرطا اول في الادب ان يلذ ويمتع. وكان يكفي ان يكون شخص كثيف الروح، ثقيل الدم حتى يشك في انه اديب، ولو اوتي القدرة على النظم المتين والانشاء المحكم ... »

والميزة او الظاهرة الشاملة التي تظهر على هذا الكتاب، هي انه لا يلخص، ولا يعرض، ولا يصح التكلم عن بعض ما فيه، تصويرا لكله.

انه اداة تسلية. الافضل ان تضعه بجانبك، حيث تنام، او في غرفة الاستقبال، لا في مكتبتك اذا كان لديك مكتبة، وتعود اليه بين وقت واخر.

وسمير هنا المؤلف، يطابق اسمه مسمى كتابه ...

عبد اللطيف شرارة

•

الضائعـــون

ديوان شعر - رجا سمرين - (؟) صفحة - مطبعة (؟)

الشعر فرع من فروع الفنون الجميلة، كالنحت، والرسم، والتصوير الى اخر الفنون. غير ان الشعر يصل الى الانسان بواسطتين : الرؤية والسمع. فاما ان تقرأه متتبعا له بالنظر وبحاسة البصر، واما بطريقة السمع وهو ينشد ويقرأ، ويتلهى.

وعلى هذا يجب ان تتوفر فيه اللفظة الجميلة الموحية، المعبرة عن المعنى تعبيرا جميلا، ورقيقا، ودقيقا. كما يجب ان تتوفر فيه الموسيقى وموسيقى الشعر ركن اساسي لا يمكن الاستغناء عنه بحال من الاحوال. والموسيقى هو الفيصل الحق بين الشعر والنثر. وبدون الموسيقى لا يكون الشعر شعرا ابدا وبلا تردد. اذن فاللفظة الجميلة، والمعنى

الرائع ، المبتكر والبعيد عن التكرار ، والابتذال والسطحية والفراغ هو الشعر . فالمعنى ، والمبنى ، والموسيقى ، هي ركائز أصيلة وجذرية للشعر مع المحافظة على الوحدة العضوية للقصيدة . ومن هنا نرى « شاعر الحمراء » محمد بن ابراهيم المغربي يعرف الشعر تعريفا يتماشى مع ما قدمناه فيقول :

الشعر ما سمعته الروح وانتعشت منه وصارت كمثل الشارب الثمل
والشعر ما قد خلى في اذن سامعه .. فيستعيده لا يخشى من الملل .

اما الشاعر العراقي : جميل صدقي الزهاوي فقد اعتبر أن الشعر الحق هو الذي يحدث هزة عند سماعه فقال :

اذا الشعر لم يهزك عند سماعه ... فليس حريا أن يقال له شعر .

ولماذا يقول الشاعر الشعر ؟ ولماذا ينشره على الناس مجموعا في ديوان او قصائد مفرقة يلقيها في النوادي ، والمنتديات ، والمناسبات ؟ هل الشاعر حر في ان يقول الشعر ا م لا ؟ لا شك ان الشاعر الحق حين يمر بتجربة حية او يمر بها وينفعل ، او يلاحظها من بعيد فسيكون في هذه الحالة مجبرا على تصوير أحاسيسه وانفعالاته ، ومشاعره في قالب شعري جميل . والمهم ان يكون صادقا في عرضه للتجربة ، محيطا بجوانبها ، ملما بكل ما يلامس تجربته من ملاحظات ودقائق . ولكن الشاعر هل يلزم ان يكون مهندسا لمستقبل قومه ، وآت مواطنيه حسب ما يراه ويعتقده ام حسبه ان يصور تجربته كما أحسها وانفعل بها بدون ان يكون موجها وراسما طريق المستقبل الجديد بديلا من الحاضر السيء الرديء ؟؟؟؟

في اعتقادي ان تصوير المأساة أو الحادثة تصويرا دقيقا وشاملا هو عمل ابتدائي اولي ، هو عملية كشف ، وبيان ، وتحليل . وفي الخاتمة يتحدد نوع المرض ، ومدى خطورته . وهنا ياتي دور الشاعر الواعي ، الهادف ، والشاعر بمسئوليته تجاه مجتمعه ، وقوميته ، ووطنيته الواسع الكبير . فيقوم هذا الشاعر بالمرحلة الثانية او النهائية وهي كيفية القضاء على المرض جذريا . وتكون النتيجة : الشفاء الاكيد كخاتمة للدواء الناجح المستخدم في التطبيب والمداواة ..

خطرت لي هذه الملاحظات وانا اتصفح ديوان « الضائعون » للشاعر الفلسطيني العربي (رجا سمرين) ابن النكبة ، نكبة العرب في فلسطين المغتصبة الحرية والتي لا زالت تئن من الالم ، ولا زا ل دمها ينزف بغزارة وبلا توقف . هذا الشاعر الذي عاش المأساة ، مأساة قومه الدامية فانغمر فيها حتى الاعماق ، وانفعل بحياة الخيام واللاجئين والتشرد واللاستقرار وبصفة دقيقة عاش حياة « الضياع » ومن هناك لم يجد ما يسمي به ديوانه سوى « الضائعون » ليجيء تعبيرا صحيحا وصادقا عن ضياع عرب فلسطين ، وتشردهم . بعد ان فقدوا الدار والامن في ربوعها الوارفة الظليلة . والديوان أهداه صاحبه :

« الى الذين لفظتهم الحياة فهاموا في مفاوزها حائرين. الى ابناء وطني المشردين وسائر المعذبين في الارض أهدي زفرات قلب مكلوم يحاول ان يرسم للقلوب الضائعة طريق الخلاص » . هل نجح الشاعر في ديوانه مقدمين اكثر منا ناقدين ومقومين . ولا نريد ان نضع الديوان على مائدة المحك النقدي ، وذلك لاني أرى عملية النقد مسئولية خطيرة وليست بالسهلة ولا الهينة . ولهذا سأمر على قصائد الديوا ن ملاحظا ومشيرا اشارات خفيفة . والان الى الديوان :

اول قصائد الديوان « الضائعون » بدأها بنداء تنبيه وافاقة بطريقة خطابية بالغة الحماسة :

ألا ايها الضائعون العفاة ، أفيقوا ، افيقوا ، كفاكم سبات
أرى الافق قد غص بالثائرين ، لنيل الحقوق ، وسحق الطغاة

بين الشاعر في هذه القصيدة حالة الضياع التي يعانيها عرب فلسطين ملاحظا الفرق الشاسع والبعيد بين حالة العرب الذين أخلدوا الى النوم، والاحلام ، والكسل ، والخمول ، يتخيلون جنات النعيم ، ونعيم الاخرة الباقية عوضا عن عذابات الحياة الدنيا ، دار الشقاء ، والقنطرة التي يمر بها الصابرون مرور الكرام الى دار النعيم المقيم ، حيث الجنة الدائمة والنعيم المستمر الى ما لا نهاية كما صور حياة الاخرين المجدين الذين يستغلون حياتهم لفائدة حياتهم ويعبون من النعيم أكوابها، عائشين الحياة لما فيها من متع ، وملذات ، وراحة بال . ويشير الشاعر الى دور الرجعية الدينية ودعاياتها . ودعوتها الحارة الى ترك مأخذ الحياة مأخذ الجد ، والكد ، والتحصيل لانها لا تساوي جناح بعوضة . وان العمل يجب ان يتوجه الى تحصيل نعيم الدار الاخرى . فقال ، ملخصا لسان حال الرجعية :

وان الاله مع الصابرين   وان الجنان لجمع العفاة
وان القضاء قضى أن يكون،   فريق ذليلا وآخر عات

ويصيح الشاعر في قومه مبينا زيف الدعوة ، ومدافعا عن الله دفاعا حارا فيقول في حرارة وصدق :

افيقوا فليس اله العباد ،   ظلوما غشوما كما يزعمون
وما ذلك الظلم من صنعه   فرب العباد رحيم حنون

القصيدة عمودية لا غبار عليها ، لكن الشاعر رسمها فوق الورق بطريقة تشبه الشعر الحر . وهذا عيب من عيوب الشعراء العموديين، انهم يريدون ان يكون شعرهم حرا ولو لم يكن كذلك . فالشعر يجب أن يكون شعرا سواء كان عموديا او حرا . وهذه المحاولة ، محاولة الخروج على القديم ولو بطريقة غير واعية وغير مدركة محاولة باطلة فرصف الشعر العمودي في سطور قصيرة لا تجعله حرا أبدا ... وينتقل الشاعر الى قصيدة ثانية معنونة « بأمي » وهي قصيدة عاطفية يقول فيها :

ذكرتك يا أم في محنتي   لاحيي بذكرك نورا أفل
فينجاب عني ضباب الحيا   ويحيا بنفسي شعاع الامل

وتوصيه والدته ، وتنصحه ، فينتفع بنصيحتها الثمينة فيصير الى هذه النتيجة :

لذلك صرت عطوفا رحيما   يمزق قلبي أنين العفاة
فرحت أجاهد من اجلهم   وأجل السلام جيوش الطغاة
ولن انثني دون نيل المرام   ولو كان في نيله حتفيه
فانت التي كنت علمتني   بألا اعود بلا نجية

ويحكي الشاعر لولده « نزار » عن حالة العالم الحاضرة ، وما فيها من حقد ، وأهواء ، ومطامع ، وسلب ، وارهاب ، وتقتيل ، ووحوش ، واستبداد قائلا له في حنان :

ولدي اتيت وملء عالمنا مظالم لا تعد
تتحكم الاهواء في ابنائه ويسود حقد
وتقودهم نحو الدمار مطامع ليست تحد
دستورهم سلب وارهاب وتقتيل وقيد
يطغى القوي على الضعيف ويدعي الاخلاص وغد
ويظل يصرخ بالعدالة وهو وحش مستبد

ويلخص الشاعر لولده قصة الوطن السليب ، قصة المأساة المروعة المدمرة ، قصة الضياع ، والتشريد ، قصة الحق المطارد من قبل جحافل الباطل الهايج فيقول :

اما بلادك يا نزار فان قصتها عجيبة ..
هي قصة الحق الذي قد اسمع الدنيا نحيبه ..
هي قصة الغدر الخسيس وقصة البطش الرهيبة
هي قصة الشعب الشريد وقصة الارض السليبة
فادع الرفاق اذا كبرت ليجعلوا منها الحبيبة
ولتجعلوا الصفحات في تاريخها تبدو قشيبة

وبعد ان قص ، وحكى لابنه حكاية فلسطين المغتصبة يوصيه بأن يجعل خاتمة الجهاد والكفاح الدعوة الى العدل ، والسلام ، والمحبة ، والاخاء الانساني العام :

فاذا اعدت مع الرفاق حقوقها بعد الجهاد
ومضت فلول الشر هاربة مروعة الفؤاد

وانهارت النظم التي قامت على اسس الفساد
وتهدم الصرح الذي قد شيد من جثث العباد
وتطايرت اجساد من خانوا كذرات الرمـــاد
فاجعل نـداءك للسلام وللعدالـة والـــوداد

وفي « نداء الثار » يصرخ الشاعر مدمدما :

دماء الحقـد تغلي في عروقي   ونـار الثار تضطـرم اضطراما
ويهتف صارخا في كـل وقت   علام النـوم يا هذا عـــلاما ؟
الام رضا الهوان وانت حـــر   ونفس الحر تـأبى ان تضاما؟

ويذكر الشاعر الشريد العربي بماضيه الزاهي قبل النكبة قائلا في طريقة استفهامية استنكارية مثيرة ودافعة :

أتنسى عيشـك الزاهي وعهدا   جميلا مـا تود لـه انصرامـا؟
وآمـالا واحـلاما عذابـــا   رقاقـا مثل أنـداد الخزامى ؟
وترضى بالمعيشة في خيـــام   نظل بهـا مهانا مستضامـا ؟
تجرع من كؤوس الذل صابـا   وتقضي العمر تفترش الرغاما ؟
وتحيا كالسـوام على فتـــات   يجود بـه اعاديـك القدامى ؟
وينخر في عظامـك كـل داء   عضال يورد النفس الحماما ؟
ويفتك في بنيك الجهل فتكـا   جهنم لا تساويـه عرامـــا ؟

الحقيقة ان القصيدة تصور حياة اللاجئين أصدق تصوير ، ان مأساة العرب الفلسطينيين أكبر من الشع ر، ولا يستطيع ان يبينها علىحقيقتها مهما برع الشاعر في تمثله للتجربة المؤلمة الدامية المفجعة .

وهناك عيب لاحظته على الشاعر وهو انه يخالف بين خاتمة صـــدر القصيدة وبين خاتمة عجزها .. والواقع ان هذا العيب ليس منحصرا في كونه مخالفة للقدماء ، بل ان الاذن الموسيقية تتطلب ذلك التوافـق في مفتتح القصيدة فامرؤ القيس يقول :

ففا نبك من ذكرى حبيـب ومنزل   بسقط اللوى بين الدخولفحومل

وزهير بن أبي سلمى يقـول :

امن أم أوفى دمنـــة لم يتكلم   بحومانة الـدراج فـالمتثلـم

والمتنبي شاعر العربية الاكبر يقول :

عيد بايـة حال عـدت يا عيـــد   بما مضى ام لامـر فيك تجديد ؟

اما شاعرنا فقد قال في مفتتح قصيدة « الثار » :

دماء الحقد تغلي في عروقي   ونار الثار تضطرم اضطراما

وفي عقيدتي يجب ان لا تخالف ما هو معهود ومتبع الا اذا كـانت المخالفة تخدم ادبنا فنيا . اما اذا كانت المخالفة لمجرد الخروج عـــن المالوف او كان ذلك بدون وعي ، فهذا ما لا نرضاه ابدا .. ويخاطب شاعرنا « خيام اللاجئين » قائلا :

وصمة انت في جبين الدهـور   يا خيامـا في القفر مثلالقبور
يا نشاز الانغام يا سبة التاريخ   والنـاس في جميع العصور..

وينتقل الشاعر الى وصف « ربيع اللاجيء » فيقول :

ربيعي حين ارجـع للديـار   يتوج هامتي اكليـل غـــار
ربيعي حـين لا جـوع لعين   يروع طفلتي وصغار جـاري
ربيعي حـــين لا داء عضال   يطوح بالكبـار وبالصغـار

وهذه القصيدة في مجموعها تعبر عن نزعة انسانية فياضة متسعة ، ورحبة .. وفي « نشيد الخلاص » يتكلم الشاعر عن مهزلة الاسلحـــة الفاسدة التي زود بها جيشنا العربي المصري سنة ١٩٤٨ ، والذي دمر مستعمليه . ولم يدمر اعداءهم . وفي هذه القصيدة يقول على لسان الجندي العربي المغدور :

ســاجمـع أشـلائي وامضي ميممـــا
الى العـــزة الشماء في همـة النسر
انـــا الحق مهمـا حـاول البغي هدمه
سيبقى مكينـا مثل طـود من الصخر

الى ان يقول في تفاؤل أخضر بانتصار مؤزر قريب ، انهم يرونهبعيدا ونـراه قريبـا :

سيبزغ فجري رغم ما جمع العدا   من القوة الرعنـاء والكيد والمكر
سيبزغ فجري رغم منخانني ومن   غداة طلبتالعون قد حفروا قبري
سيبزغ فجري حيثيعشى ضياؤه   عيون الالى بالامس قد سرهمقهري
لقد سجل التاريخ عنهم حكايـة   ملطخة بالخزي والعار والفجــر

وفي « قصة حمراء » يقول الشاعر انه « كان يقف في احدى محطات الترام في القاهرة ، فاذا بفتاة في ريعان الشباب تقبل عليه ولســـان حالها يقول : هل لك ان تستمتع ليلة بهذا الجمال ؟ فعرف من لهجتها انها فلسطينية لاجئة فاعلمها انه لاجيء مثلها ، فافترقا وفي عيني كل منهما دموع » فناداها الشاعر مبينا لها وجهة نظره مـــن الناحيـــة الاجتماعيـة قائـلا :

اختاه لا تبكي فانــك لست في عرفي أثيمـة
انـــا لا الومك ان رأيتك في دروب القـــاهرة
تمشين مائعـة الخطى ، ليقـال هذي عـــاهرة
وتساومين شباب مصر عـلى الليالي الفاجرة
فسواك كم حسناء ذلت للظـروف الجـــائرة

وياتي الشاعر للقاهرة ليتعلم في معاهدها ، وليتخرج من كلية اللغة العربية بالازهر الشريف ثم يعود لوطنه الحالي « الاردن » فيخاطبهقائلا:

كم كنت يـا وطني اود بان اعود الى رباك
فأراك موفور الكرامة قـد نصرت على عداك
لكنني قد عدت والاعداء تنعم فـي ثــراك
وبنوك قد هاموا حيارى في المفاوز والهـلاك

ويستمر مستعرضا الاحوال السيئة ومقارنا ماضي الوطن بحاضرهفي ألم وحسرة وتوجع . ولكنه سرعان ما يجمع شاعرنا قوته ويصيح :

صبرا بلادي كفكفي تلك الدمـوع القانيـة
انا سنغسل عارنا المزري بحـرب ثانيـــة
تودي باجناد اليهـــود الى قرار الهاويـة
صبرا : فان الجولة الاخرى قريبـا آتيـة.

ولا ينسى شاعرنا « الجزائر » فيهديها قصيدة يقول فيها :

يا ايها الشعب كـافح لا تكـل ولا   يرعك ذا الظالم الطاغي ومدفعـه
من يغصب الحق حاذر ان تجادله   فليس من حجة كالسيف تقنعــه

وهي قصيدة حماسية ملتهبة غيرة ووطنية علىالصعيد العربيالواسع يشكر عليها . والشاعر احيانا يصاب بالنثرية والبساطـة المتناهيـــة فيخاطب المتكبر في قصيدة « من انت » ؟؟

وأبوك مثـــل أبي   وأمـــك مثـــل أمي

فهذا النوع من الكلام والتراكيب بعيد عن الشعر بعدا متناهيا ... ويحاول الشاعر ان يتفلسف فينصب لنفسه واعظا ، موصيا ابنهمحمد:

فوصاتي اليك اما رأيت الناس في هذه الحياة نمورا
ان ترى كالهزبر لا يقبل الضيم ويستقبل العدو فخورا

ويوصي شاعرنا الناس بالانطلاق ، ودفع الهموم بالمرح والترفيه عـن النفس بالراح فيقــول :

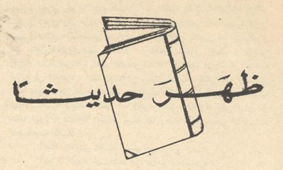
فاصرع هموم‍ـك بالمـدام فانهـــا   طب النفـوس وبلســـم الارواح
فاذا انتشيت وجدت روضا ناضرا   في المهمـه المتجرد الصحصـــاح

ونسمع النغمة « الشابية » عند الشاعر في قصيدته المهداة الى ام كلثوم واصفا صوتها :

مفعم بالحنان بالامل الوضاء بالخمر ، بالهوى ، بالخلود ..
بالاماني العـذاب ، بالعطر يندى بهديـل الحمام بين الورود
انت ما انت ؟ انت نور مشع ، انت نبع بالحب والخير دافق

هذه جولة غير محيطة بالديوان ، وانما هي استعراض بسيط لاهم ما فيـه . وطبعا لم انقد كما رأيتم وسمعتم . وانما قدمت، واستعرضت، وتهنئة حارة للشاعر العربي على هذا المجهود . آملا ان أراه في عمـل اكثر جودة وقربا الى الكمال الفني المرتقب .

القاهرة   محمد العيساوي الجمني



- اشهر المخترعين ومخترعاتهم ـ تأليف فليتشر برات ـ الرسوم للفنان ر.ص. اندرسون ـ ترجمة عميد اركان حرب محمد عبد الفتاح ابراهيم ـ مصمم الغلاف ايهاب شاكر ـ ١٤٠ صفحة ـ مصور ـ منشورات دار المعارف بمصر ـ مطابع دار المعارف بمصر القاهرة

- الحياة منذ كانت ـ تأليف برتا موريس باركر ـ ترجمة الدكتور احمد حماد الحسيني ـ ٣٦ صفحة ـ مصور ـ منشورات دار المعارف بمصر ـ (لم يذكر اسم المطبعة)

- سطح الارض المتغير ـ تأليف برتا موريس باركر ـ ترجمة الدكتور محمد يوسف حسن ـ ٣٦ صفحة ـ مصور ـ منشورات دار المعارف بمصر ـ مطابع دار المعارف بمصر القاهرة

- كتاب التوابين ـ تأليف ابي محمد عبد الله بن احمد بن محمد موفق الدين بن قدامة المقدسي المتوفي بدمشق ٦٢٠ هـ . ـ عني بنشره وتحقيقه جورج المقدسي ـ النص العربي ٣٣٨ صفحة ـ حجم كبير ـ منشورات المعهد الفرنسي للدراسات العربية بدمشق ـ المطبعة الكاثوليكية ببيروت

- التائه : امثال واقوال ـ جبران خليل جبران ـ نقله الى العربية يعقوب افرام منصور ـ تقديم حارث طه الراوي ـ ١٢٨ صفحة ـ منشورات مكتبة النهضة ببغداد ـ مطابع دار العلم للملايين ببيروت

- اردنا الحياة ـ مجموعة قصص ـ تأليف ناجية ثامر ـ تقديم احمد بلخوجة ـ ١١٢ صفحة ـ منشورات اللغات بتونس ـ نشر وتوزيع دار الكتب الشرقية بتونس ـ (لم يذكر اسم المطبعة)

- لماذا نعلم ـ تأليف نخبة من المعلمين من الشرق والغرب ـ تحرير لويس شارب ـ ترجمة وتقديم الدكتور محمد علي العريان ـ تصدير حسن جلال العروسي ـ مصمم الغلاف امين لبيب رزق ـ ٤٠٤ صفحة ـ حجم كبير ـ منشورات عالم الكتب بالقاهرة ـ دار الهنا للطباعة (؟)

- الاستراتيجية البحرية ـ تأليف برنارد برودي ـ ترجمة وتقديم اللواء سعد الدين صبور ـ مصمم الغلاف محمد سليمان التهامي ـ ٤٩٢ صفحة ـ حجم كبير ـ منشورات دار الفكر العربي (؟) ـ دار الجيل للطباعة (؟)

- قلق ـ مجموعة شعرية ـ ناصر بو حيمد ـ ١٣٦ صفحة ـ منشورات دار الكاتب العربي ببيروت ـ (لم يذكر اسم المطبعة)

- قضية الشعر الجديد ـ تأليف الدكتور محمد النويهي ـ ٢٧٢ صفحة ـ حجم كبير ـ منشورات معهد الدراسات العربية العالية بالقاهرة ـ المطبعة العالية بالقاهرة .

- سلاسل الماضي ـ رواية ـ تأليف نزار مؤيد العظم ـ تقديم الدكتور عبد السلام العجيلي ـ مصمم الغلاف فاتح المدرس ـ الخطوط لمحمد قنوع ـ ٣٣٦ صفحة ـ حجم كبير ـ مطابع ابن زيدون بدمشق .

- في معركة الحضارة ـ تأليف قسطنطين زريق ـ ٤٢٤ صفحة ـ حجم كبير ـ منشورات دار العلم للملايين ببيروت ـ مطابع دار العلم للملايين ببيروت

- مقرر مختصر في التحليل الكيفي شبه الميكروني ـ تأليف وليم المر جولدويل وجورج بروكس كنج ـ ترجمة الدكاترة عيسى مصطفى عيسى وعبد المجيد مرزوق العجان وعيسى محجوب البيه وسامي كرلس طوبيا ـ مراجعة الدكتور عزت محمد خيري ـ تقديم الدكتور رشاد رزوق ـ مصمم الغلاف محمد اسماعيل صالح ـ ٢٦٠ صفحة ـ حجم كبير ـ منشورات دار المعرفة بالقاهرة ـ دار ومطابع الشعب بالقاهرة .

- تطور الفكر السياسي ـ الكتاب الثاني ـ تأليف جورج سباين ـ ترجمة حسن جلال العروسي المحامي ـ مراجعة وتقديم الدكتور محمد فتح الله الخطيب ـ ٤٥٦ صفحة ـ حجم كبير ـ منشورات دار المعارف بمصر بالقاهرة ـ مطابع دار المعارف بمصر بالقاهرة

- الدب الصغير وصديقته ـ تأليف السي هوللند مينارك ـ ترجمة عفاف محمد فؤاد ـ مراجعة الدكتور محمد قدري لطفي ـ ٦٢ صفحة ـ مصور ـ منشورات مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة ـ مطابع دار القومية العربية (؟)

- الدب الصغير ـ تأليف السي هوللند مينارك ـ ترجمة عفاف محمد فؤاد ـ مراجعة الدكتور محمد قدري لطفي ـ ٦٠ صفحة ـ مصور ـ منشورات مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة ـ مطابع دار القومية العربية(؟)

- الابرياء ـ مسرحية عن قصة دورة اللولب لهنري جيمس ـ تأليف وليم ارشيبلد ـ ترجمة تماضر توفيق ـ مراجعة حسن محمود ـ تقديم الدكتور عبد القادر القط ـ ١٠٨ صفحة ـ منشورات مكتبة الانجلو المصرية بالقاهرة ـ مطبعة مصر (؟)

- هل سيولد طفلي سويا ـ تأليف جون جولد ـ ترجمة عفاف محمد فؤاد ـ مراجعة وتقديم محمد كامل النحاس ـ ٥٦ صفحة ـ منشورات مؤسسة الخانجي بالقاهرة ـ مطبعة الاستقلال (؟)

- الكتاب الدراسي وتنمية وعي القراءة ـ تسجيل لندوة عقدت بمقر مؤسسة فرانكلين بالقاهرة ـ تقديم حسن جلال العروسي ـ منشورات دار القلم (؟) ـ مطبعة الاستقلال (؟)

- **Muhammad : Prophet and Statesman — by W. Montgomery Watt — 250 pages — published & printed by Oxford University Press, England.**

- **Histoire et Classification de l'œuvre d'Ibn Arabi — Etude Critique — par Osman Yahia — Tome I — 340 pages — Tome 2 — 364 pages — gd. f. — Institut Français de Damas — Imprimerie Catholique à Beyrouth.**

- **A Simple Honorable Man — a novel by Conrad Richter — 126 pages — Fawcett Publications Inc., New York.**

- **The Long, Lonely Leap — by Captain Joseph W. Kittingr with Martin Caidin — 126 pages — Fawcett Publications Inc., New York.**

- **The Painfighter — by Grace Steele Woodward — 128 pages — Fawcett Publications Inc. New York.**

- **The 1964 Olympic Guide — by John V. Grombach — 270 pages — Fawcett Publications Inc., New York.**

- **The Lyndon Johnson Story — Biography by Both Mooney — 192 pages — Fawcett Publications Inc, New York.**

- **Atoms Below — by George P. Steele & Herbert J. Gimpel — 96 pages — Fawcett Publications Inc., New York.**